نوابغ الفكر العربي

٦



بقلم عيسى ميخائيل سابا

رائد من رواد النهضة الحديثة جلا غبار الزمن عن تراث الأقدمين وأطلع فى عصره فجراً جديداً فكان فيه ملء السمع والبصر .



دار المعارف ببيروت

الفصل الأول

عصر ناصيف اليازجي

١ ـ الحركة السياسية

كانت مصر وسورية ولبنان فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهو ميلاد الشيخ ناصيف اليازجى ، مسرحاً للحوادث الجسام : فمن احتلال الفرنسيين لمصر فى سنة ١٧٩٨ إلى إخفاقهم تحت أسوار عكاء ، ومن حدب اللبنانيين على الفرنسيين ، إلى نكوصهم عن مساعدتهم بعد إذ أوغر الأميرال سدنى سميث الإنجليزى صدورهم على بونابرت .

وكان الظلم والاستبداد هو الشعار الذى يتحلى به كل والٍ تركى عهد إليه فى السيطرة على ولاية من الولايات ، وبقيت الحال على هذا المنوال حتى فتح الجيش المصرى بلاد الشام فقابله الأهلون بالترحاب والأفراح[1] .

وكان لبنان يتمتع بضرب من الحكم الذاتى فى تلك الفترة فشاء الأمير بشير الشهابى أن يقضى على تلك الصلة الواهية التى تربطه بالأتراك وأن ينادى

---

(١) سار الجيش المصرى وفتحت فلسطين من أقصاها إلى أقصاها بعد حصار قليل لمدينة عكاء ثم سارت الجيوش نحو الشمال ففتحت دمشق فحلب وعمت الأفراح فى بلاد الشام بالفتح المصرى حتى قال شاعر الشام فى وقته الشيخ أمين الجندى فى ذلك من قصيدة يسرد بعض أحوال الموظفين الأتراك وفظائع الجند العثمانى وما كانوا يعاملون به الناس من سوء الخلق :

وقد استباحوا المنكرات فلا تسل ... عمـا توقـع منهم وتحصلا
وقضاتهم للسحت قد أكلوا فهل ... أبصرت حيـاً عن مضرتهم خـلا
نبذوا الشريعة من وراء ظهـورهم ... وطغوا وزادوا فى الضـلال توغـلا
ومشايخ الإسلام أصبـح علمهم ... جهلا فلم تر قط منهم أجهـلا
. . . من يخبر الأتراك أن جيوشهم ... كسرت وأن حسينهم ولى إلى . . .

(« مصر والشام فى الغابر والحاضر » لأسعد طلس)

بلبنان بلداً حرًّا مستقلا ، وكاد يفلح فى مسعاه لولا تألب الدول الأوربية عليه فكان مصيره النفى إلى الأستانة فى سنة ١٨٤٠

وتمخّضت تلك الحوادث عن فرض نظام جديد على لبنان قوامه تقسيم الجبل بين قائم مقام مارونى وآخر درزى يستمد كلاهما سلطانه من الوالى التركى .

وما لبثت تركيا أن استفادت من هذا التقسيم المبنى على العنصرية الدينية ، فنفثت سمومها بين أبناء الوطن الواحد ، وألبت الأخ على أخيه ، فاندلعت ألسنة الثورة الأهلية غير مرة وكان أشدّها ضراماً ثورة سنة ١٨٦٠ فكثرت فيها الضحايا وعمّ الخراب والدّمار .

وهنا أيضاً تتداخل الدول الأوربية ، وتسنّ للبنان نظاماً جديداً من الحكم الذاتى يعرف بعهد المتصرفية ، ولكنه لا يفصل لبنان مع ذلك عن العجلة التركية. ومع ما فى هذا النظام الجديد من مساوئ تبعد اللبنانيين عن غايتهم الكبرى وأمنيتهم المنشودة ، وهى الاستقلال التام ، فقد نعم اللبنانيون فى ظلاله مدة نصف قرن بالأمن والعدل والرخاء .

تلك صورة عابرة خاطفة للحركة السياسية فى عصر المترجم له ، وعلى الجملة كان عصر انحطاط وظلم تساق به العامة سوق الأنعام لا إرادة لهم ولا رأى ولا حريّة ينعمون بها والدولة العثمانية تحتقر المعارف وتبعد رعاياها عن كل ثقافة وتحضّر فتقدم الخاصة بالعلوم كان ضئيلا جدًّا [١] .

ولما أخذ الناس بأطراف المدنية الغربية وفتح باب المهاجرة كان أول ما اقتبسوه الحرية الشخصية [٢] .

٢ ــ الحركة الاجتماعية

نبّهت الحملة الفرنسية المصريين إلى عالم اجتماعى جديد بما نقله أعضاء الحملة معهم من عادات ومظاهر اجتماعية فى الملبس والمشرب والمآكل وفى غير

(١) « زبدة الصحائف فى سياحة المعارف » . مطبعة الأمريكان . بيروت ص ٥٣٦

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان ج ٤ ص ٧٦

ذلك من مجالى الحياة اليومية ومباهجها كانت كلها أموراً جديدة فى حياة المصريين لم تلبث أن تسرّبت إلى عاداتهم وتقاليدهم .

أما لبنان وسورية وفلسطين فإن إخفاق الحملة الفرنسية فيها ، جعل المدنية الغربية لا تطرق أبوابها يوم طرقت أبواب مصر ، فبقى القوم محصورين فى دوائرهم الاجتماعية ، يحيون الحياة التى ألفوها ، ويجرون على العادات التى توارثوها عن الآباء والأجداد ، وقوامها كرم عربى ينبض فى عروقهم ، ونخوة عربية تذهب بهم إلى أبعد الغايات ، وجدّ ونشاط فى موارد الرزق يستنبتون بهما حتى الصخر ويديرون بهما صناعاتهم الخفيفة ، هذا إلى قيام المرأة بنصيبها فى تلك الحياة فهى ربّة البيت ، وأم البنين ، والمشاركة للرجل فى جهاده العنيف .

ولم يطرأ على هذه الحال تبديل يذكر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى أن بدت طلائع الزحف الاجتماعى تتوغل فى البلاد ، ومرجعها أولا إلى المعاهد الكبرى التى تنافس على إنشائها المرسلون الأجانب ، ففتحوا فى الشرق منافذ على حضارة الغرب وأحواله الاجتماعية فتنبهت الأفكار ، وتطلعت العيون ، وصبت النفوس إلى الاغتراف من مناهل ذلك الجديد .

ويشاء القدر أن يقترن تاريخ تلك الحقبة بتاريخ إنشاء الصحف ، وتأليف الجمعيات الأدبية والعلمية ، وقيام فن التمثيل ، وإقبال الأدباء على ترجمة الكتب الأجنبية ، واطلاع الناس على ما فى الغرب من أسباب الحضارة ، فأثّر هذا كله فى النفوس الشرقية ، وجلا للبلاد حالا اجتماعية جديدة إن لم تنتشر كل الانتشار حتى وفاة المترجم له قبيل الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فقد جدّ جدّها بعد ذلك واعتنقها اللبنانيون وساروا فيها شوطاً بعيداً .

هذا ونزوح اللبنانيين وغيرهم من أنحاء سورية إلى بيروت على أثر حوادث ١٨٦٠ أحدث حركة اجتماعية فيها وزاد قدوم الأجانب إليها للتجارة والتبشير فى ظل الامتيازات الأجنبية [١] .

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان ج ٤ ص ١٤

٣ — الحركة الثقافية

كان لبنان فى مطلع القرن التاسع عشر ، يغطّ فى سبات عميق من الجهل لانعدام وسائل التعليم فيه فلم يكن هناك مدارس ، ولا كتب ، ولا جرائد[١] ، وكانت بقاعه وبقاع ما جاوره من البلاد العربية تحت جنح حالك من ظلام الجهل إلا ما كان منها قرب الأديرة[٢] ، أو فى زوايا المساجد . ولم تكن المدارس فى بيروت أرقى مما كانت عليه قرب الأديرة بل أدنى ؛ فقد كانت كتاتيب صغيرة تعلم فيها مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، ويتولى ذلك بعض المعلّمين البسطاء ؛ وكان لكل طائفة مدرسة تقوم على تلقين طلبتها شيئاً من العلوم الدينية ، ومبادئ القراءة والحساب .

ولما قدم المرساون سعوا إلى فتح مدارس أرقى شأناً من الكتاتيب ولكنها لم تبلغ شأواً بعيداً إلا بعد حوادث سنة ١٨٦٠[٣] .

أما الكتب فقد كانت نادرة ، وأكثرها من المخطوطات الغالية الثمن فلا يملكها إلا القليل من الأثرياء ؛ وكذلك كانت حال الكتب العربية المطبوعة فى أوربا فلا يعرفها إلا أفراد من العلماء ، ولم يكن لمطبوعات الشرق وجود إلا فى الأستانة ، وهى تركية اللغة فى الأعم الغالب .

ولم يكن فى لبنان إلا مطبعة دير مار يوحنا الصايغ فى الشوير تعنى بالكتب الدينية[٤] .

وكان فن الكتابة ، فى بلاد هذه حالها ، على جانب كبير من الانحطاط والركاكة ؛ وكان إنشاء الكتّاب فى مطلع القرن التاسع عشر سقيماً جداً لا يجرى على قواعد اللغة وعلومها ، ويتضح لنا ذلك جليّاً من مطالعة بعض

(١) « يوبيل المطبعة الأمريكية » من خطبة للبطريرك غريغوريوس الرابع البطريرك الأنطاكى الأرثوذكسى .

(٢) « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ج ١ ص ٢ و « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان ج ٢ ص ٤٦

(٣) « تاريخ بيروت » . المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٢٧ ص ٩٩ — ١٠٠

(٤) المشرق السنة الثالثة ص ٣٥٩ — ٣٦٢

الوثائق التى كانت تكتب فى داووين الحكام ، ومن مطالعة الكتب التى أرّخت تلك الحقبة من الزمن ؛ فالمطلع على « الأصول العربية »[١] وعلى « مذكرات تاريخية[٢] » يرى أن اللغة فى هذا العصر قد انتقلت إلى جوّ العامية والرطانة الأعجمية ، فلا نكاد نتبين لغة معربة ولا عبارة صحيحة .

وقد نهضت اللغة بمن قام فى لبنان وسورية ومصر من رجال العلم يحاولون رفع مستوى الكتابة فساروا بها على قواعد مضبوطة ، كبطرس كرامة ونقولا الترك والنقاش والمراش وأحمد فارس الشدياق وناصيف اليازجى وأضرابهم .

على أن الرسائل الأدبية التى عرفت فى ذلك العصر كانت متأثرة بطابع القرن الثامن عشر وظلّ السجع مدة طويلة أسلوب الكتّاب ، ثم أخذ الإنشاء يتحوّل عن الأسلوب القديم المقيّد إلى الأسلوب الجديد الحرّ ، وقد أعان على انتشاره العلم والتجارة والاقتراب من العالم الغربى ثم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب .

ولم يبلغ القرن التاسع عشر عصاراه حتى كان الترسّل الأدبى قد أخذ يخلع عنه أطمار القديم ولكن ذلك لم يتمّ فجأة كما يتبين لنا من مراجعة الصحف[٣] .

(١) نشرها أسد رستم .

(٢) نشرها الأب قسطنطين الباشا .

(٣) « الأساليب النثرية » لأنيس القدسى . طبعة بيروت ص ٣٦٦

الفصل الثانى

ناصيف اليازجى فى عصره

١ – حياة ناصيف اليازجى

ولد الشيخ ناصيف فى قرية « كفر شيما » من قرى ساحل بيروت فى ٢٥ آذار (مارس) سنة ١٨٠٠ وتلقى مبادئ القراءة على راهب من « بيت شباب » يدعى القس متى .

وكان والد الشيخ من مشاهير أطباء عصره على مذهب ابن سينا[١] ، وإلى جانب ذلك كان يحب الأدب ويميل إليه ، فبثّ ذلك فى روع ولده ناصيف فنشأ على محبة العلم ، وشرع يطالع ما تصل إليه يده من كتب النحو واللغة ودواوين الشعراء ، فأدّب نفسه بنفسه ، وتخرّج على فنون الأدب العربى : أستاذه الكتاب ، وصفحة شعره الوجود .

وكانت علومه التى أخذ بدراستها : الصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى والمنطق والطب والموسيقى مع ما أحصاه فى صدره من اللغة حتى كان كأنه القاموس[٢] .

تألق نجم الشيخ ناصيف وهو بعدُ فى السادسة عشرة من عمره بما كان ينظمه ، وعنى بالخط عناية خاصّة فجوّده وبرع به فاتصل خبره بالمطوّب الذكر البطريرك أغناطيوس للروم الملكيين الكاثوليك . فدعاه ليكتب له فى دير « القرقفة » الواقع على هضبة من هضبات كفر شيما ، فبقى عنده مدّة سنتين ، وبعد انتقال البطريرك إلى « الزوق » من أعمال كسروان ، ترك ناصيف

(١) ابن سينا طبيب وفيلسوف عربى ولد فى بخارى سنة ٣٧٠ هـ وتوفى سنة ٤٢٨ هـ

(٢) مجلة « الجنان » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٩٥

مهمّته ورجع إلى قريته يواصل الدرس والمطالعة وقرض الشعر[١] .

وترامت شهرته إلى الأمير بشير الشهابىّ الكبير فقرّبه إليه وجعله كاتب يده ، ومع أنه لبث فى خدمته نحواً من اثنتى عشرة سنة أى إلى سنة ١٨٤٠ وهى السنة التى خرج فيها الأمير بشير من البلاد الشامية ، لم يكن له فيه إلا مدائح قليلة ، وربما كان ذلك احتراماً لشاعر الأمير الخاص كرامة ، فلم يشأ أن يزاحمه[٢] .

وقد يكون مدحه بغير قصيدة فلما بلغ سنّ النضوج أنكر كثيراً من نظمه ، وهذه عادة جرى عليها كثير من العلماء والأدباء وكانت أولى قصائده فى الأمير على ما فى ديوان الشيخ « النبذة الأولى » قصيدة مدحه بها بعد الحروب التى وقعت سنة ١٢٤٠ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٤ ومطلعها :

يهنيك يهنيك هذا النصر والظفرُ   فانعم إذن أنت بل فلتنعم البشر[٣]

ولعلها خير القصائد التى مدح بها الأمير بشيراً وهو ما زال شابّاً غضّ الإهاب ، فأثبتها فى ديوانه ، ونلمح بها تقليداً للمتنبى وقد كان يحبه حبّاً شديداً .

ثم إن اتصاله بالأمير بشير سهل عليه التعرّف بكثير من وزراء الدولة وأعيان البلاد والعلماء[٤] .

وفى سنة ١٨٤٠ غادر الأمير بشير لبنان ووقعت الحرب الأولى سنة ١٨٤١ بين الدروز والنصارى ، فكان الشيخ ناصيف فى جملة المهاجرين إلى مدينة بيروت ، فبعد أن كان رزقه مقصوراً على خدمة الأمير ككاتب له ، أخذ يحترف التعليم فى مدارس الأميركان ويصحح الكتب فى مطبعتهم[٥] . وفى بيروت انقطع إلى المطالعة والتعليم ، فكان بيته مباءة العلماء ، ومرجع الفتاوى الأدبيّة وعكاظ المحاضرات العلمية والمطارحات اللغوية[٦] . فسار ذكره فى البلاد العربيّة قاطبة وراسله أكابر الشعراء .

(١) النبذة الأولى من شعره ص « ش »

(٢) مجلة « الجنان » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٩٥ .

(٣) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

(٤) مجلة « الآثار » السنة الثانية ١٩١٢ ص ٢١٣

(٥) مذكرات الدكتور كرنيليوس فانديك فى مجلة « الهلال » السنة الرابعة عشرة ص ٢٧٤

(٦) مجلة « الآثار » السنة الثانية ص ٢١٣

وهو العضو العامل القويّ الذي أيّد الدكتور عالي سمث في إنشاء الجمعية السورية سنة ١٨٤٧ ، فكان في جملة أعضائها وانتخب في عمدتها الخصوصيّة ، وكتب الدكتور عالي سمث في ٢٤ كانون الأوّل (ديسمبر) سنة ١٨٤٩ إلى الجمعية الأسيويّة بأن الجمعية في بيروت جارية على طريقة منظّمة ، فقد عقدت جلساتها في كلّ أسبوعين مرّة ، وفي ضمن الرسالة كتاب للشيخ ناصيف يصف فيه المقامات التي صنّفها ، منها مقامته العقيقيّة ويرغب في عرضها على المستشرقين ليطبعوها[١] .

وفي السنة الـ ١٨٦٣ أنشأ المعلم بطرس البستاني مدرسته المعروفة بالمدرسة الوطنية ، فانتدبت الشيخ ناصيفاً ليدرّس الصفّ العربيّ المنتهي ، فشرع يملي على طلاّبه أرجوزته «نار القرى» وكان في الوقت نفسه يساعد المعلّم بطرس في تصحيح قاموسه «محيط المحيط» .

وفي السنة التالية أنشأ المطوّب الذكر غريغوريوس يوسف البطريرك الملكيّ الكاثوليكي ، المدرسة البطريركية في بيروت وطلب إلى الشيخ ناصيف أن يدرّس فيها ، فكان يقوم بالتدريس في المدرستين المذكورتين معاً[٢] . وبعد مدة دُعي إلى التدريس في الكليّة الإنجيليّة السورية «الجامعة الأميركية اليوم» فدرّس فيها اللغة العربية وآدابها وكان في جملة طلاّبه الدكتوران يعقوب صرّوف وفارس نمر وغيرهما[٣] .

٢ — صورته الجسمانية والخلقية

كان معتدل القامة فوق الربعة ممتلئ الأعضاء ، أسمر اللون حنطيّه ، أسود الشعر ، أجشّ الصوت ، مهيب المنظر ، شهما وقوراً ، متواضعاً ، متأنياً في حديثه وحركاته ، قليل الضحك ، عفّ اللسان ، لم تسمع له كلمة بذيئة قط ، لا في حديثه ولا في كتاباته[٤] .

(١) المشرق السنة الثانية عشرة ١٩٠٩ ص ٤٠ واطلب المقامة في قسم المنتخبات من هذا الكتاب.
(٢) «الغرر التاريخية» لعيسى إسكندر المعلوف .
(٣) سجل الجامعة الأمريكية في بيروت ١٨٦٥ — ١٨٦٦
(٤) النبذة الأولى ص ت .

ومن صفاته التي ازدان بها وتنوقلت عنه ، أنه لم يكن يبتّ حكماً لم يتحقّقه ، ولا يؤكّد خبراً ما لم يتمحصه ، ولا يثبت رواية لم يعد النظر عليها ، وكان هذا دأبه في حديثه وكتاباته وذلك لحصافة في عقله وشهامة في خلقه ، معترفاً أن الإنسان موضع النسيان وما العصمة إلا لله وحده ومن أقواله في ذلك :

لا تعط حكمك ما بدا لك أمره   حتى تقوم على حقيقة أمره

وله البيت المشهور الذي جرى مثلا :

من قال لا أغلطُ في أمر جرى   فإنها أولُ غلطة تُرى[١]

فمن البيتين المتقدمين نتبين جودة أخلاقه ولين عريكته وتواضعه ، وقد نُقل عنه أنه كان قليل الكلام ولاسيّما بما لا يعنيه[٢] . فلم يُسمع له في قصائده أو رسائله أنه هجا أحداً وقد قال فيه أحمد فارس الشدياق :

ما كان يهجو ولا يهجى ولا حجبت   ذكا قريحته أحلاكُ حدثان
فلم يُضعْ ساعةً من عمره عبثاً   ولم يضعْ قوله في غير إحسان[٣]

ولكن رُوى له بيتان ارتجلهما على سبيل المداعبة :

قد قال قوم إنّ خبزك حامضٌ   والبعضُ أثبتَ بالحلاوة حكمَهُ
كذبَ الجميع بزعمهم في طعمه   مَنْ ذاقه يوماً ليعرف طَعمَهُ[٤]

وما يثبت لنا ابتعاده عن الهجاء وترفعه عن كلّ ما يشين قوله :

يا ناظمين الهجا خلّوا قصائدكم   لمن يبين لنا في عرضه أثرُ
إذا ضربتم بسيفٍ قاطعٍ حجراً   تثلّم السيف إذ لا يشعرُ الحجرُ[٥]

وما نتلمّسه من اتّضاعه ولين عريكته وخفض الجناح للأقارب والأباعد على السواء ، وتجنّبه ما ليس يحق شأن الرجل الصادق المخلص الأمين لربّه ولنفسه قوله :

الناسُ تنسبُ لي ما فوق مرتبتي   من كلّ علمٍ وفنٍّ لستُ أدريه
يا أيُّها الناس قولوا حين غبتُ كما   شئتم فما لثناكم مَنْ يماريه

(١) مجلة «الجنان» السنة الثانية ص ١٥٠
(٢) مجلة «النجاح» السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٤١
(٣) «الغرر التاريخية» لعيسى إسكندر المعلوف .
(٤) النبذة الأولى ص ت .
(٥) مجلة «الآثار» السنة الثانية ص ٢١٥

فإن حضرتُ دعوا عنّى مبالغة فصاحب البيت أدرى بالذى فيه[١]

وحدّث بعض معاصريه قال : إنّ أحد الأدباء أراد يوماً مداعبته فأخبره أن الشيخين إبرهيم الأحدب ويوسف الأسير يستعدّان لهجائه بقصيدة عامرة الأبيات ، فتبسم الشيخ ناصيف وقال :

إنّ ممدوح أربعين أميراً لا يبالى بأحدب وأسير[٢]

وقصد بالأربعين أميراً ، أمراء الشعر الذين مدحوه[٣] . وفوق هذا كله فقد كان متّصفاً بخير ما يتصف به الرجل من الخلق الرضىّ والإخلاص والوداد ، رقيق القلب ، حسن التديّن ، مبالغاً فى اجتناب السحت ، لا يعطى مالا ولا يأخذ مالا بالربى ولا يكتب صكّاً فيه ربى[٤] .

ويتحدّث عنه معاصروه : أنه كان واسع الاطلاع ، كثير النكات والنوادر ، يروى القصّة بتواريخها وأسماء أصحابها وأمكنتهم ، ومن غريب ذاكرته ما يُروى : أنه كان إذا نظم الشعر لا يكتبه بيتاً بيتاً بل كان ينظم القصيدة فى ذاكرته ثم يكتبها . وقد أملى فى مدّة اعتلاله الأخير ثمانية عشر بيتاً دفعة واحدة ، وهذا ما يدلّنا على اشتغاله بالعلم وشغفه به وتفكيره الدائم بما كان آخذاً نفسه بسبيله وخدمته . حدّث إسكندر آغا أبكاريوس قال[٥] : « حدّثنى ذات يوم أنه رأى حلماً غريباً قصه علىّ فوجدته من أعجب ما سمعت به قال : « بينما كنت نائماً إذ رأيت أنى مسافر إلى بغداد ، فلما انتهيت إليها اكتريت لى منزلا هناك ، ثم أخذت أطوف فى تفقد ما بها من الآثار القديمة ، فلما كنت فى بعض الشوارع إذا أنا بمجلس قد حفل بطلبة العلوم وفى صدره شيخ جليل قد أخذ بالتدريس والإملاء ، فدخلت وحييتُ الأستاذ ثم جلستُ أسمع فقال الأستاذ : "مَنْ أنت ومن أىّ الديار؟" قلت : "أنا رجل من أهالى لبنان ، ساقنى حبُّ العلم إلى هذه الأقطار ، حتى إذا كنت طائفاً ، أجول فى الشوارع وفقنى

(١) مجلة « الآثار » السنة الثانية ص ٢١٥

(٢) من مرويات الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف .

(٣) « فاكهة الندماء » طبعة صادر . بيروت سنة ١٩٣٢

(٤) « النبذة الأولى » ص ت

(٥) « مجلة النجاح » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٥٧ — ١٥٨

الله إلى الوقوف بحضرة الأستاذ" قال : "لعلك من أهل العلم" قلت "يا مولاى أنا دون ذلك ولكننى أرغب فى التردّد على أربابه لعلى ألتقط شيئاً من فضلاتهم فإن شاء الأستاذ يأمر أحد تلامذته أن يدرسنى شيئاً مما يلقنه فى بحره الزاخر" ، قال : فلم يعبأ الشيخ بكلامى ولا اكترث لى ، وكأنه استصغرنى دون ما طلبت ونظرت فإذا الجماعة يتغامزون كأنهم يسخرون بما زعمته ، غير أنى عدتُ فكررت الطلب على الأستاذ حتى أجاب بعد الإلحاح ووكل واحداً منهم بتدريسى فأخذ "الأزهرية" وأعطانى منها مثالة اختارها من صعاب المسائل وأملى علىّ شرحاً وجيزاً ، وبعد ما حفظتها أخذ الكتاب وقال : "اتل علىّ ما حفظت" قلت : "إنى لم أحفظ العبارات بلفظها وإنما حفظت معانيها . فسل عما أحببت" .

قال : "لا بد من حفظ ألفاظها أيضاً"

قلت : "أوتحفظها أنت" ، فأمسك قليلا ثم أخذ يسألنى عن المعانى فكنت أجيبه بما لم يكن يعلمه حتى أخذه العجب وتوقف عن السؤال ، وكان الأستاذ من أهل الطرب والغناء ، فأخذ يهلل ويكبر ، ثم التفت إلىّ وقال : "يا رجل أنت من لبنان"

قلت : نعم .

قال : "أوتعرف الشيخ ناصيف اليازجى ؟"

قلت : "نعم أعرفه" . فابتسم .

قال : "يا سبحان الله تكون من تلاميذه ثم تأتى إلينا كأنك تريد أن تختبرنا" .

قلت : "معاذ الله يا مولاى ، أنا دون ما ذكرت ولم أدرس عليه قطّ ولا سبيل إلى ذلك لأنه مصاب بداء الفالج منذ خمسة عشر شهراً" .

قال : وكان ذلك "المنام" فى شهر رمضان وقد دنا الفطر وكان بعض التلامذة قد اهتموا بنظم القصائد يعايدون بها الأستاذ وسألونى أن أجاريهم فى ذلك وهم يقصدون تخجيلى لدى الأستاذ فاعتذرت بالقصور ، فأخذوا يلحون علىّ فى ذلك ويستهمّوننى وأنا أتمنّع ، فلما كان يوم العيد ، أقبلوا على الأستاذ

وأخذوا ينشدون ما نظموا الواحد بعد الآخر حتى فرغوا فنهضت وأنشدت قصيدة لم يبق منها فى محفوظتى سوى هذه الأبيات :

هلال شوال فى ذا العيد حياكا — والأفقُ حياه بدرٌ من محياكا
يا أيها الشيخ أنت البحر فى أدب — ونحن سحب روانا فضلُ سقياكا
أنا الفقير بعلمٍ جئت أطلبُه — واللهُ فى العلم بين الناسِ أغناكا
لا زلت تقطع أعياداً وأزمنة — تمضى بخير وعين اللهِ ترعاكا

قال فصفق الشيخ وقال : "يا للعجب العجاب تدّعى أنك لا تعرف شيئاً وعندك مثل هذا النظم ؟ !" ثم نهض الجماعة للانصراف فنهضت معهم ، وحينئذ استيقظت » .

وروت مجلة البيان[١] الأبيات أيضاً مع مختصر ما تقدم زاعمة حدوثها فى الأزهر .

وما روينا ذلك وأطلنا إلا لندل على توقد ذاكرة الشيخ وحضور ذهنه وتنبه شاعريته حتى فى المنام .

وما يروى عنه أيضاً أنه ألّف المقامة اليمامية على ظهر الفرس وكان قاصداً بأهل بيته « بحمدون » سنة ١٨٥٣ بقصد الاصطياف فلما انتهى إليها أخذ قرطاساً فعلقها[٢] ويقال إنه كان قوى الذاكرة إلى حدّ الغرابة ، يحفظ زبدة كلّ كتاب يقرأه فيرسخ فى ذهنه فلا تذهب به الأيام[٣] ؛ وقلّما طالع كتاباً واحتاج إلى مطالعته مرة ثانية ، ولا ريب أن هذه المزية التى خص بها كانت من الأسباب المهمة التى ساعدته على البلوغ إلى ما بلغ من العلم وسعة المعارف .

قيل : إنه كان يحفظ القرآن الكريم آية بعد آيةٍ . وشعر المتنبى بيتاً بعد بيتٍ لا يخلّ بحرف ، ولم يسمع بيتاً من الشعر إلا عرف قائله وربما ذكر السبب الذى قيل من أجله[٤] ووعى فى صدره أيام العرب وأشعارها ونوادر أخبارها[٥] .

---

(١) مجلة « البيان » ج ١ ص ٢٦٤
(٢) « النبذة الأولى » ص ث — اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٣) مجلة « النفائس » بقلم كامل حميه العدد اا ١٥٥ ص ٩ مطبعة النفائس بيروت .
(٤) مجلة « الجنان » السنة الثانية ص ١٥١
(٥) مجلة « النجاح » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٤١

ويروى عنه أنه كان يذكر أموراً كثيرة وأحاديث غريبة وقعت له أو سمعها يوم كان عمره خمس سنوات[١] ، وكان مولعاً بالصوت الجميل والغناء الحسن ، ومما ذكره الدكتور شاكر الخورى[٢] يوم كان فى المدرسة الوطنيّة ، أن تلميذاً من أبناء صفّه ، كان ذا صوت حسن ، فكان الشيخ يلقّنه التواشيح لينشدها على الأصول .

وإلى جانب هذا كلّه كان محافظاً على لهجة قومه وتقاليد أهل بلاده فى الطعام واللباس والجلوس وسائر العادات ، فكان لا يطيب له إلا أن يغنى بأغانى قومه ، ويحذو حذوهم فى كلّ شىء ، فيلبس العمامة على رأسه والجبّة والقفطان على بدنه ويضع الدواة تحت منطقته . وروى تلميذه وابن وطنه الدكتور شبلى الشميّل أنه سمعه مرّة يقول على سبيل المزاح : « لو فقد الشاش لاعتممت "بالقطوعة" وهى فى لغة العامة قطعة من الحصير الخلَق[٣] » .

٣ — تأثره وتأثيره

لا جدال فى أن الشيخ ناصيفاً اليازجى ابن نفسه ، فلئن كان نشأ فى كنف أبيه الطبيب الأديب فغرس فى نفسه بذور حب العلم والأدب ، ولئن كان معلمه القس متى رعاه صغيراً ولقّنه مبادئ القراءة والكتابة ، إنه لا يدين بعد ذلك بمنزلته العلمية لأحد ، فهو الذى بنى نفسه دون أن يتأثر أحداً اللهم إلا الفحول القدامى من الكتّاب والعلماء والشعراء .

ترعرع ناصيف اليازجى فى عصر مطبق الجهل لا مدارس فيه ولا كتب فكان يعمد إلى بعض الأديار يستعير منها الكتب فيحفظ زبدتها ، وينسخ بخطّه ما يروق أن ينسخ منها ، ولا يزال كثير من تلك الكتب التى نسخها محفوظاً فى مكاتب لبنان الخاصة[٤] .

---

(١) مجلة « الجنان » السنة الثانية ص ١٥٠
(٢) « مجمع المسرات » ص ١١٧
(٣) « تاريخ الصحافة العربية » ج ١ ص ٨٨
(٤) « الغرر التاريخية » لعيسى إسكندر المعلوف .

فالملكة التى حباه بها الله ، ورغبته فى العلم والأدب ، وجلده على الدراسة والتحصيل يتناول منهما حتى ما لم يكن فى المتناول ، وذكاؤه الفطرى فى استيعاب كل ما يقع تحت بصره وذهنه ، كل أولئك كنّ الأرومة التى أطلعت تلك الدوحة الباسقة فى روضة المعارف فتفرّع عليها أنضر الغصون والأفنان .

أما تأثيره فقد كان كبيراً ، ولا غرو فالشهرة ملفتة للأنظار ، ومدعاة للمحاكاة والاحتذاء . ويكفى أن ينبغ رجل فى علم من العلوم أو فن من الفنون حتى يُطلع فى سماء بيئته وبلاده شهباً ودرارئ تريد كلها أن تقبس النور الوضّاح لتكون الكوكب الساطع والبدر المنير .

ولقد أطلع الشيخ ناصيف اليازجى فى بيئته وبلاده تلك السماوة المتألقة بضياء العلم والأدب ، فسعى إليه السعاة وتخرّج على يديه الشباب ولا سيما طلبته الذين أخذوا عنه العلم فى مختلف المعاهد والمدارس التى علّم فيها ، فخلّف بذلك أجيالا من المتعلمين المثقفين كانوا نواة النهضة المباركة التى آتت أكلها فى الأجيال التى تلت جيله .

وليس أدلّ على تأثير الرجل فى بيئته وبلاده وفى نفوس طلاب العلم من أن تكون كتبه منهل الورّاد يغترفون منها زلال الأدب ومعين العلوم فما من أديب ولا متأدب فى عصره وبعد عصره إلا استقى من ذلك النبع الفيّاض .

الفصل الثالث

جوانب ناصيف اليازجى

١ – آثار ناصيف اليازجى

يبدو لنا من مطالعة آثاره أنه كان متضلعاً من علم العربية ، ملمّاً ببعض فنون عصره كالطب والموسيقى ، وقد حافظ على ذلك العلم كما اتصل به يجمعه جمع عارف خبير عالم ، يؤلفه أو يختصره بأسلوب عرف به وحده ، وهاك أسماء مؤلفاته :

ا – فى الصرف والنحو

١ – « لمحة الطرف فى أصول الصرف » : أرجوزة فى سبع عشرة صفحة مشروحة بقلمه ألّفها سنة ١٨٥٤ مقتصراً فيها على ما تهم معرفته من هذا العلم ، طبعت فى المطبعة المخلصية للروم الكاثوليك ببيروت سنة ١٨٧٠

٢ – « الجمانة فى شرح الخزانة » : أرجوزة طويلة فى علم الصرف علق عليها شرحاً ، سماه « الجمانة » جمع فيها مبادئ هذا الفن معتمداً فى شروحه على كتب الأيمة ، مقتصراً على ما يحتمل وقوعه فى الاستعمال دون الشوارد والمفروضات . طبعت فى المطبعة المخلصية أولا ثم فى المطبعة الأميركية سنة ١٨٧٢ فى مئة وأربعين صفحة ، ولها طبعة ثالثة تم طبعها مختصرة بقلم ابن المؤلف الشيخ إبرهيم اليازجى سنة ١٨٨٩

٣ – « طوق الحمامة » : وهو مختصر نثرىّ يقع فى عشرين صفحة صغيرة طبع فى المطبعة المخلصيّة سنة ١٨٦٥

٤ – « اللباب فى أصول الإعراب » : أرجوزة تقع فى ثمان وعشرين صفحة حوت مبادئ النحو مع الشرح طبعت سنة ١٨٨٩

٥ — « نار القرى فى شرح جوف الفرا » : أرجوزة مستفيضة الأبحاث النحوية ، ضمّ إليها ما تفرّق فى كتب أيمّة النحو ، خدم بها المتأدبين الآخذين بعلم العربية خدمة تذكر فتشكر ولا سيّما بالشرح الذى سماه « نار القرى » فقد جمع فيه دقائق النحو وأصول قواعده ، فهو أوّل كتاب عصرىّ صنّف فى موضوعه ، فرغ المؤلّف من تبييضه سنة ١٨٦١ وطبع فى بيروت سنة ١٨٦٣ فى ٣٨٩ صفحة متوسطة الحجم ، ثم اختصره ولده الشيخ إبرهيم سنة ١٨٨٢ فى ٢٩٦ صفحة وأعرب شواهده المعلم شاهين عطية فى كتاب سماه « الدرر فى عقود الجوهر ».

٦ — « الجوهر الفرد » : موجز وضعه للطلبة الأصاغر فى خمس عشرة صفحة صغيرة الحجم طبع فى المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٥ ثم شرحه ابنه الشيخ إبرهيم وطبعه فى بيروت سنة ١٨٨٨ بعنوان « مطالع السعد فى شرح الجوهر الفرد » ، وقد اختصرت فيه القواعد العربية فى الصرف والنحو اختصاراً لا يمكن أن يختصر بأكثر من ذلك .

٧ — « فصل الخطاب فى أصول لغة الأعراب » : كتاب نثرىّ قسمه قسمين ، كتاب التصريف وكتاب النحو طبع فى بيروت سنة ١٨٥٤ فى ١٢٤ صفحة صغيرة وأضاف إلى شرحه بعض زيادات وطبع سنة ١٨٦٦ فى ٢٥٧ صفحة ، ثم طبع سنة ١٨٧٧ فى المطبعة الأميركية ، وآخر طبعة له كانت فى المطبعة المذكورة وفى مكتبة وديع سركيس سنة ١٩٢٥ .

واشتغل أيضاً بتنقيح كتاب « بحث المطالب » تأليف المطران جرمانوس فرحات[1] ، فتولى ضبطه بنفسه ونسخه بقلمه جارياً فيه مجرى الأوجه الصحيحة فى كلّ مسألة .

ب — فى البيان والبلاغة والعروض

١ — « عقد الجمان » : جمع خلاصة المعانى والبيان بين متن وشرح وألحق به بحثاً هو « نقطة الدائرة » فى العروض والقافية . أنهاه سنة ١٨٤٨ وله طبعات

(١) مجلة « الجنان » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٩٠ — ١٩١

متعددة فى المطبعة الأميركية ببيروت باسم : « عقد الجمان » وطوراً باسم « مجموع الأدب فى فنون العرب » طبع سنة ١٩٠٨ ويتراوح عدد صفحاته بين ٢١٤ و ٢١٦ صفحة وآخر طبعة له كانت فى المطبعة الأميركية أيضاً سنة ١٩٣٢ وهى الطبعة التاسعة رتّبها على نمط جديد مدمجاً المتن فى الشرح ، لبيب جريديني .

٢ — « اللامعة فى شرح الجامعة » : أرجوزة فى علمَىِ العروض والقوافى تقع فى ١٢٧ صفحة صغيرة الحجم أنهاها سنة ١٨٥٣ وشرحها ولده الشيخ حبيب وسمّى الشرح « اللامعة » طبعت فى بيروت سنة ١٨٦٩

٣ — « الطراز المعلم » : أرجوزة مختصرة فى البيان تقع فى ٣٥ صفحة جمع فيها نظماً وشرحاً المبادئ المهمّة فى البيان ، وفرغ من تبييضها سنة ١٨٦١ ، طبعت فى المطبعة المخلصية سنة ١٨٦٨ .

ج — فى المنطق

١ — « قطب الصناعة فى أصول المنطق » : رسالة نثرية تقع فى سبع وثلاثين صفحة صغيرة الحجم ، اقتصر فيها على المبادئ المهمّة فى أنواع القضايا وضروب القياس ، فرغ منها سنة ١٨٥٧ طبع أربع مرّات فى بيروت فى المطبعة الأميركية ، الطبعة الأولى سنة ١٨٥٧ والطبعة الأخيرة سنة ١٩١٣

٢ — « التذكرة فى أصول المنطق » : أرجوزة صغيرة جعل فى صلبها أركان المنطق ، ألحقت برسالة « قطب الصناعة » فألفت خمسين صفحة من الحجم الصغير .

د — فى الطب

١ — « الحجر الكريم فى الطب القديم » : أرجوزة تتألف من أربعة وثمانين بيتاً من الرجز نشرت فى مجلة « الطبيب » لبوست والبارودى فى العدد الرابع عشر سنة ١٩٠٢ ص ١٢٥ و ص ١٥١ ، وله أيضاً المقامة الطبية فى مجمع البحرين وهى المقامة الثلاثون[1] .

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

هـ — الدواوين الشعرية

١ — « نبذة من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي » : ولها طبعتان ، الأولى في بيروت سنة ١٨٥٣ وتقع في ١٢٨ صفحة متوسطة الحجم ، والطبعة الثانية في المطبعة الشرقية في حدث بيروت بعنوان « النبذة الأولى » مصححة بقلم ولده الشيخ إبرهيم ومصدرة بترجمة حياة الناظم بقلم سبطه الشيخ أمين الحداد سنة ١٩٠٤

٢ — « نفحة الريحان » : ولها طبعتان: الأولى في المطبعة العمومية في بيروت سنة ١٨٦٤ وتقع في ١٣٨ صفحة متوسطة الحجم ، والطبعة الثانية في المطبعة الأدبية سنة ١٨٩٨ مصححة بقلم ولده الشيخ إبرهيم .

٣ — « ثالث القمرين » : وله طبعتان: واحدة في بيروت سنة ١٨٨٣ وقد أضيفت إليه التواريخ الشعرية ، والطبعة الثانية في المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٩٠٣ مصحّحة بقلم ولده الشيخ إبرهيم ، ويقع في ١٤٦ صفحة .

٤ — نُشر له على حدة : « نبذة تواريخ مقتطفة من ديوان الشيخ ناصيف اليازجي » طبعت في بيروت سنة ١٨٥٩ في ست عشرة صفحة .

٥ — « فاكهة الندماء في مراسلة الأدباء » : مجموعة قصائد دارت بين الشيخ ناصيف وأدباء عصره ولها طبعتان : الأولى في بيروت سنة ١٨٧٠ ، والثانية في بيروت ، مطبعة مكتبة صادر سنة ١٩٣٠

ويقول سليم دياب(١) : « قد عنيت باستقصائها — أي فاكهة الندماء — فوجدت شيئاً كثيراً من رسائل نثرية وشعرية أغفلت في الطبع فجمعتها عندي وسأترقب الفرصة لنشرها إن شاء الله » على أنه لم يفعل ذلك ولم يقع لنا شيء مما وعد به .

٦ — وله خطاب ممتع في علوم العرب ، تعرّض به إلى المعارف الأولية عندهم في العهد الجاهلي متقدّماً به إلى ما بعد الإسلام عصر التدوين والعلم(٢) نشر سنة ١٨٥٢

(١) مجلة « الجنان » السنة الثانية سنة ١٨٧١ ص ١٥٢

(٢) اطلبه في أعمال الجمعية السورية . الكراس السادس ص ٤١ — ٤٣

و — الأدب

١ — « مجمع البحرين » : كتاب مقامات نسج فيها على منوال مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري .

٢ — عبقرية ناصيف اليازجي

ما من شك في أن صاحب هذه المؤلفات المختلفة المتنوعة عبقري من العباقرة ، دفعه روحه الوثّاب وحبّ التجلية والتبريز إلى أن يكون الأديب الفحل والشاعر المطبوع والعالم المتمكن .

١ — ناصيف اليازجي الأديب

ذهب الشيخ ناصيف في إنشائه مذهب أهل العصر . فنجد السجع متوافراً في كتاباته ، وخير مثال على ذلك كتابه المعروف « مجمع البحرين » ، وقد جرى فيه على أسلوب بديع الزمان الهمذاني والحريري ، وكان الداعي إلى وضع هذا الكتاب ، إعجاب أدباء العصر بمقامته العقيقية(١) التي عرضها على الجمعية السورية كما ألمعنا إلى ذلك ، فأنشأ ستين مقامة ونسب روايتها إلى سهيل بن عبّاد وبطولتها إلى ميمون بن خزام ، وهما اسمان وهميان ، وقد ضمّن تلك المقامات كثيراً من الفنون الأدبية ولا سيما معجزات البديع . ومن دراسة « مجمع البحرين » نتعرّف إلى أسلوب الشيخ الكتابي وإلى مقدرته اللغوّية وسعة اطلاعه ووقوفه على تاريخ العرب وآدابهم وأمثالهم وأيّامهم ، وغريب اللغة ، ولا تخلو مقامة من مقاماته من أمثال يضمّنها المقامة ثم يشرحها شرحاً مشبعاً ، لا يترك فيه زيادة لمستزيد كما في المقامة النجدية(٢) ، فقد أورد فيها أشياء من غريب اللغة وقديمها . وتناول في غيرها الموضوعات الاجتماعية وغيرها من أنواع علوم اللغة كالبديع على أنواعه .

(١ و ٢) اطلبها في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

فلا عجب إن نحن رأينا اليازجي يقدّم لنا في كتابه « مجمع البحرين » نموذجاً عن الفكرة الأدبية التي كانت تسود عصره ، وقد مثلها بما خلّف لنا من الآثار الأدبية أحسن تمثيل ، فبعث في العصر نهضة أدبية فاختصر القواعد العربية بكتب تدريسية ، لم يتكلف في عبارتها ، ولا تطالبني بضرب الأمثال فخذ أيّ كتاب شئت من كتبه المدرسية مثل : « كتاب مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » أو كتاب « فصل الخطاب في اللغة والإعراب » أو كتاب « عقد الجمان في المعاني والبيان » وانظر إليهما نظرة ناقد منصف وعارف خبير وقل لي : أترى عبارة أوجز منها وأسهل ، وقد راجت في المدارس ولمّا تزل إلى يومنا هذا تدرّس في بعضها . وما يدلنا على مقام اليازجي في عصره ، إقبال أدباء العصر على مطالعة كتابه « مجمع البحرين » فقد أجلّه أكابر العلماء والأدباء وقرّظوه واستعظموه لما راعهم من بلاغته ففضّلوه على مقامات غيره وكان في جملة من قرّظه السيد حسين بيهم من أعيان بيروت قال مؤرّخاً :

هذا كتاب فريدٌ في محاسنه ... نظير صائغه يزهو به الأدبُ
لو كان في الزمن الماضي لحج له ... على الضوامر عجم الناس والعربُ
كأنّه روضة غنّاء تتحف من ... يؤمها بثمار دونها الضَّربُ
أوصافه الغُرُّ قد قالت مؤرخة ... الدرُّ من «مجمع البحرين» يكتسبُ

وقال الشيخ شهاب الدين العلوى الموصلي من قصيدة :

أشعارها[1] الأصمعي لو كان ينشدها ... بمثلها قال أذن الدهر ما سمعت
ثم الحريريّ أحرى لو يقاومها ... بأن يقول مقاماتي قد اتضعت

وإن نحن نظرنا إلى آخر صفحات « مجمع البحرين » نظفر بجملة صالحة من التقاريظ التي قالها أصحابها معجبين بما أنشأه الشيخ : ونختم ببيتين قالهما أسعد طراد :

لله درّ اليازجيّ فإنه ... بحرٌ يفوق على جميع الأبحر
وإذا سألتَ عن الجواهر تلتقي ... في «مجمع البحرين» كنز الجوهر

وعلى الجملة فإنه أنيق الإنشاء منتخب الألفاظ ، قد رفع مستوى الإنشاء من درجة الركاكة والانحطاط ، إلى طبقة الفصحى ، فكان الممهّد إلى ذلك

(١) الضمير « بأشعارها » يعود على المقامات وهكذا في « يقاومها » من البيت الثاني .

بما وضعه من كتب دراسية وما نشره أو بثّه في أفئدة طلابه وأصدقائه .

وكتابه « مجمع البحرين » لا تخلو مقامة من مقاماته من أمثال يضمّنها المقامة ثم يشرحها شرحاً مشبعاً ، لا يترك فيه زيادة لمستزيد كما في المقامة النجدية وقد أورد فيها كثيراً من غريب اللغة وقديمها[1] .

وقد تناول في مقاماته أيضاً كثيراً من الموضوعات الاجتماعية كما في المقامة الحجازية[2] ، وضمنها دعوى الخزاميّ في أنه خطب لابنه واحتياله بتحصيل المهر ، وكالمقامة العقيقيّة ومنها يظهر لنا ميل الشيخ الديني وإعراضه عن حطام الدنيا. ولعلّ هذه الأبيات تمثّل لنا المقامة بتمامها :

« واهاً لمَن خاف الإله واتقى ... وعاف مشترى الضلال بالهدى
وظلّ ينهى نفسه عن الهوى ... إنّ إلى الربّ الكريم المنتهى
"وليس للإنسان إلا ما سعى ... نعم وإن سعيه سوف يُرى"
ما هذه الدنيا سوى طيف كرى ... فانتبهوا يا غافلين للسّرى
وشمّروا الذيل وبادروا الوحى ... من قبل أن يدعوكم داعي الردى
واطّرحوا كلّ نعيمٍ وغنى ... واستهدفوا لوقع أسهم البلى
وأقرضوا الله فنعم مَن وفى ... ما أجهل الناس وأذهل النهى
لو أنَّ هذا المال في هذا الورى ... قال : ألستُ ربّكم؟ قالوا : بلى

ولما فرغ من أبياته زفر زفرة الضرام ، وقال كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . ونجدُ في مقاماته المواضيع النحوية كمًا في المقامة الكوفيّة والمقامة الدمشقية والبغدادية ، ونجد أيضاً أنواع البديع كما في المقامة الأزهرية والمقامة الرملية[3] ، وكذلك العروض في المقامة العراقية ، كما أنه تناول في مقاماته هذه الطب والفلك فذكر في المقامة الطبية[4] خطبة في الطبّ ووصيّة في حفظ الصحة وأورد مسائل طبية ، وفي المقامة الفلكية ذكر الكواكب السيارة

(١) اطلبها في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٢) اطلبها في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٣) اطلبها في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .
(٤) اطلبها في قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

والبروج والمنازل وغير ذلك من متعلقات علم الفلك . وأما ما تناوله من فنّ البديع فالجناس العاطل كقوله فى المقامة الرملية :

الحمد لله الصمد   حال السرور والكمد

الله لا إله إلا   الله مولاك الأحد

لا أم لله ولا   والد لا ولا ولدٌ

أوّل كلّ أوّل   أصل الأصول والمدد

وهى قصيدة تبلغ ستة وعشرين بيتاً ثم يردف ذلك بالأبيات المعجمة أى المنقطة ، وهو غير الجناس العاطل كقوله :

بشجىّ يبيت فى شجنِ   فِتنٌ ينتشبن فى فِتنِ

شيّق تيّق تجنّب فى   نَفق ضيّق بقى فغنّى

وهى عشرة أبيات ، ثم ينتقل إلى نوع آخر هو الملمّع ، وهى التى شطر منها مهمل من النقط وشطر معجم :

أسمر كالرمح له عامل   يُغضى فيقضى نخبٌ شيّقُ

مسك لماهُ عاطر ساطعٌ   فى جنّة تشقى شج ينشقُ

وفى هذا النوع تسعة أبيات ، وينتقل منها إلى الأبيات الخيفاء وهى كلمة منقوطة وأخرى عاطلة :

ظبية أدواء تغنى الأملا   خيّبت كل شجىٍّ سألا

لا تفى العهد فتشفينى ولا   تنجز الوعد فتشفى العللا

غضّة العود تثنت مرحاً   بضّة اللمس تجنّت مللا

وهى عشرة أبيات يجرى فى نظمها هذا المجرى ، ثم يتقدّم إلى الأبيات الرقطاء ، وهى ما كان النظم فيها بحرف مهمل وحرف معجم وهذا نموذج منها :

ونديم بات عندى   ليلة منه غليلُ

خاف من صُنع جميل   قلتُ لى صبر جميل

وهى سبعة أبيات يختمها بقوله :

قاتلى وجهٌ بديعٌ   زاجرى عنه قليل

وبعد أن يفرغ من نظم تلك الأنواع يعمد إلى نظم أربعة أبيات فى عاطل العاطل لم يسمع غيرها فى أشعار العرب وهى :

حول درّ حلّ وَرْدٌ   هل له للحرّ وردُ

لحصور حلو وصل   وردُهُ للصّحو طردُ

وله صولٌ وطولٌ   وله صدّ ورد

دهرُهُ حرٌّ صدور   هل له لله حدٌّ

فمن النماذج التى عرضناها تلمّسنا شيئاً عن مقدرة الشيخ اللغويّة وتلاعبه بالألفاظ العربيّة واستخدامها فى غاية بيانية، قلّ أن تتأتى إلا لمن ملك ناصية البيان وانقادت له اللغة انقياد المهر الرضيع إلى أمه .

وبالإضافة إلى ما تقدّم نرى له فى البديع أيضاً ، ضرب ما لا يستحيل بالانعكاس أودعها المقامة البصرية[1] وعدد الأبيات فيها أربعة عشر بيتاً قال :

قمرٌ يفرط عمداً مشرق   رشّ ماءً دمع طرف يرمق

وفى ختامها :

قلّ طعم دونه رُدّ بكم   كبدٌ رهنٌ ودمعٌ طلقُ

وله فى المقامة نفسها بيتان طردهما مدح وعكسهما هجاء وهما :

باهى المراحم لابسٌ   كرماً قدير مسندُ

باب لكلّ مؤمّل   غنم لعمرك مُرفدُ

وعكسهما :

دنسٌ مريد قامرٌ   كسب المحارم لايهاب

دفرٌ مكرّ معلم   نغل مؤمل كلّ باب

فنحن نرى : أن ذلك لا يكون بمقدور كلّ شاعر إن لم يكن قد ضرب بسهم وافر من معرفة اللغة وأسرارها ، وقد يرى أبناء هذا الجيل أن فى عمل الشيخ مضيعة للوقت فى شىء لا تُرجى منه فائدة ولا يُفاد العلم منه بشىء .

ولكن رويدك يا هذا ولا تعجل بالحكم ، وتريث قليلا وانظر بعين المنصف العادل إلى زمن الشيخ ، ذلك الزمن الذى بُعث من دركة الانحطاط ، فلا علوم

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب .

ولا مدارس ولا جامعات ولا تخصص ، وانبعاث القرن التاسع عشر ما انقطع عما تسرب إليه من عصر انحطاط اللغة وقد كثرت المحسّنات اللفظية فى النظم فقلّ أن تقع على شاعر فيه لا ترى له جولات فى أنواع البديع ، وكان الأدب العربى إلى مطلع القرن العشرين لا يخلو من ذلك ألبتة وكان لزاماً على الأديب أن يُلم بتلك الأنواع البديعية ، فلاعجب إن نحن رأينا الشيخ يقدّم لنا فى كتابه « مجمع البحرين » نموذجاً عن الأدب الذى كان يهيمن فى عصره .

ب ــ ناصيف اليازجى الشاعر

من مراجعة الأصول التى بين أيدينا نرى أن أوّل ما نظمه من فنون الشعر هو المعنّى[١] وذلك قبل أن يأخذ بدراسة العروض وإليك مقطعاً مما نظم قال :

شابهت بدر النور بالخلقه لمّن لبست الجبة الزرقا
أنت القمر والبدر يا غندور لكن ْمنيَن للبدرْ هالمشْقه

دور

أنت القمر والبدر يا غندور بالطابع المسعد وفيض النور
برجلك بقلبى لم يزل معمور
خيمت فى شرقيه ، حتى انشغل قبليه ، وأنت المخبأ فيه ،
هذا السبب غرقان ها لغرقه .

ومن هذه القصيدة التى تبلغ نحو خمسة مقاطع من الشعر العامىّ نعرف شيئاً من خياله وانطباعه على النظم بدون كدّ ذهن وانقداح قريحة متعبة ، يبدو هذا من تساوق الألفاظ وخفتها وأخذ بعضها برقاب بعضها الآخر فلا نجد فيها ما ينفر منه السمع أو تنقبض منه النفس .

وأنتقل الآن إلى رياض الشعر فنستشف شيئاً من أغاريد الشيخ ، وقبل الشروع بذلك أقسم شعره أربعة أقسام هى :

١ ــ منظومات الصبا وفيها الغزل والتشبيب
٢ ــ المدح والرثاء

(١) المعنى ضرب من الزجل : قال المحبى فى خلاصة الأثر : الزجل فى اللغة الصوت وسمى زجلا لأنه يلتذ به وتفهم مقاطيع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى ويصوت .

٣ ــ الشعر الدينى
٤ ــ الحِكَم والتاريخ

لقد وضع الشيخ نصب عينيه هذا القول :

أجلّ الشعر ما فى البيت منــه غرابة نكتة أو نوع لطف[١]

فى كلّ ما نظم وأحسّ به ، فلا نكاد نقرأ له بيتاً من الشعر إلا رأينا فيه نكتة أو حكمة أو مثلا سائراً ، فقد كان حاضر القريحة ينظم بضعة عشر بيتاً على نفَس واحد فى يقظته وبضعة أبيات فى منامه ، فيحفظها فى ذهنه ويكتبها دفعة واحدة كما رأينا ، وقد تناول جميع أبواب الشعر المعروفة فنظم فيها . ومن أقواله المشهورة : « كأنى قاعد فى قلب المتنبى » ويقصد بذلك أنه كان يدرى ويروى شعر المتنبى وكان إمامه فى الشعر يتتبع حسناته ويتنكّب عن سيئاته ، ومن قراءة شعره نرى أثر المتنبى ظاهراً فى كثير من نظمه واحتذائه المطالع وتتبع الأقوال الحكميّة والأوصاف الرائعة .

وإلى جانب هذا كله نحسّ ونحن نقرأه أن فيه سلاسة وسهولة ، فلا نحتاج إلى كدّ ذهن لاستيعاب القول ، ولا نقدر أن نجزم بتأثره بالمتنبى فقط بل تأثر بغيره كأبى تمام والبحترى وابن المعتز . وتأثر أيضاً بشعراء عصر الانحطاط فقد حاول أن يعارض كثيراً من معجزات صفى الدين الحلى ، فى تتبعه أنواع البديع والمحسنات اللفظية والتلاعب بها ، ويكثر من التوجيه فى الأوضاع النحوية والصرفية والبيانية والعروضية وهى علومه التى امتاز بها . فمن توجيهاته قوله :

وقطّبتْ عند زجر الصبّ حاجبها لأنها تعهد التأكيد بالنّون

وقوله :

ما زلتُ مستنداً إليك محدّثاً فكأنّنى خبرٌ وأنت المبتدا

ولندع الآن هذا الضرب ونتقدّم إلى شعره الغزلى ، وإن أنا قلت شعر الغزل ، فلا تنتظر منى أن أحدثك عن شاعر رمزىّ كبعض شعراء عصرنا ، ولا تطلب منى أن أعرض أمامك شاعراً تثقّف بثقافة الغرب فغرف الخيال ومطارحه البعيدة ، فحلّق فى سمائه ليستلهم ربّة الشعر فتوحى إليه ما يطرب ويرقص ويستفزّ

(١) رواية عيسى إسكندر المعلوف .

العاطفة الكامنة، فينتقل بك من أديم الأرض إلى السموات العلا بفكرٍ مجنّح وروح ترقرق طيّ الهواء، وروعة أخاذة، تصل بك إلى فردوس الشاعر المبدع الذى يبعث فيك شعوراً، ما كنت تحلم به من قبل، فإما أن يُسرّك ويطربك وإما أن يبكيك، وإما أن يجعلك حيث لا تدرى ولا تعى بقولٍ هو السحر الحلال.

ولكنى سأتحدث إليك عن شاعر القرن التاسع عشر وهو مطلع النهضة الحديثة، وعلينا أن نكون منصفين فنحصر القول فى القرن نفسه، ولا نتعداه إلى غيره، وقد عرفنا شيئاً عن عصر الانحطاط، وعرفنا شيئاً عما كان فيه من علم وأدب، ودعنى ألفت نظرك إلى دواوين الشعراء فنجد أن الغزل هو أوّل ما نظموه، فالشعر ثمرة من ثمار الحب، ولولا سحر الحبّ ما ترنمت القلوب بشعرٍ ولاطربت لنغمٍ، ولا ابتسمت ابتسامة الحقل لأزاهر الربيع. والشيخ ناصيف واحدٌ من أولئك الذين فتح الحبّ قرارة نفوسهم قال:

من غنج عينيك أم من لطف معناك   أيدى الهوى أوقعت قلبى بأشراك [١]
يا ظبية فى النقا ترعى الخزام به   لم تعلمى أن عين الصبّ ترعاكِ
روحى فداك لقد أضنى هواك فتى   ما كان يدرى الهوى والله لولاكِ
وردٌ بخدّيك أم هذا خضاب دمى   فقد أراقت دمى بالسّحر عيناكِ

وأنت تعلم جيداً أن الشاعر هنا لم يأت بمعنى جديد مبتكر فهو فى القصيدة كلّها ما خرج عن الظبية والخزام والورد والعذاب والهوى، فلا تطلب منه أكثر من ذلك بالنسبة للسنّ والعصر. أما العصر فقد عرفناه، وأما السنّ فنعرفه إذا تدبّرنا القصيدة ورأينا فيها الغيرة التى تكتنف الشاب والتضحية فى سبيل الحبّ مما لا يكون إلا ليافع لم يدرج عن الطوق بعد:

إنى لقد غرت من ذكر عليك جرى   ومن لحاظ رسولى حين يلقاك

والآن أنتقل بك إلى قصيدة نلمس بها تأثر الشيخ بعنترة قال:

أتظن هذا الخال فوق المبسم   إلا عبيداً حارساً دُرّ الفم
وتظنّ هذا الدرّ درّاً حوله   ماءٌ كماءِ البحر مثل العلقم
لا والذى خلق المياه فما به   إلا رضاب كوثرىّ المطعم

(١) اطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب.

ومنها:

حتى دخلت الدار ساعة غفلة   وعرفت ربع الدار بعد توهم

* * *

وأجلّه عن أن أقول بأنّه   شهد جنته النحل لا يروى الظمى
ألوى علىّ فضمنى وضممته   وصدورنا بصدورنا لم تعلم
أهوى عليه وفى عفّة يوسفٍ   حتى يميل وفيه عفّة مريم
فيروح بين صبابتى وحنينه   وأروح بين حديثه وتبسّمى

ونرى أن هذه القصيدة وإن كانت غزلاً فهى تحمل ضمن أبياتها رزانة يوسف وعفّة مريم، وهو وإن حمّل ريح الصبا سلامه فلا يجرؤ أن يلثم أو يقبّل إن وقع فى صدرها بل نراه ينفى الشىء بإيجابه:

بالله ياريح الصبا قبل الضحى   إن جئتِ هاتيك الديار فسلّمى
قسماً بها إلا وقعتِ بصدرها   بين النهود ولا أقول لك الثمى [١]

فأنت ترى أن الشيخ قد جارى الشعراء فنظم غزلاً مهذباً جرى فيه كما ترى مجرى الرزانة والتحفظ وتظهر لنا نفسيته فى باب الرثاء ولا سيما فى رثاء ولده حبيب كما سترى فى المنتخبات.

ج — ناصيف اليازجى العالم

كتب الشيخ وألّف واختصر وعلّم وأجاد فأفاد فلا يمكننا أن ننفى عنه لقب عالم زمانه. صحيح أنه لم يتخصص بالكهربا كأديسن ولا نبغ فى الطب كلويس باستور ولا اشتهر بالطبيعيات كإسحق نيوتن، ولكنه تضلع فى العلوم العربية وآخرها المنطق فهو عالم فى عرف المنصفين الذين يزنون أقدار الناس بمعيار الحق والإنصاف [٢].

وإذا شئنا أن نقيس أدباء القرن التاسع عشر بمقياس أدباء القرن العشرين

(١) «النبذة الأولى» ص هـ، واطلبها فى قسم المنتخبات من هذا الكتاب.
(٢) رسالة الأب نقولا أبى هنا فى الشيخ ناصيف اليازجى. مطبعة البولسيين فى حريصا ص ٢ — ٧

على ما فيه من مدارس وجامعات منظمة ومطابع ومواصلات سريعة وجرائد ومجلات ، نظلم أولئك الذين بذلوا من الضعف قوّة وجاهدوا فى سبيل طلب العلم كادّين معتمدين على أنفسهم وعلى دراسة ما تصل إليه أيديهم من الكتب والمخطوطات فى زمن كانت سوق العلم فيه راكدة ، لا يطلبها سوى النفر القليل ، ولا يبلغ شأوها إلا بشقّ النفس والدرس المتواصل ، فأدباء القرن التاسع عشر على ما عندهم من تقليد واختصارات وجمع ، يرجع إليهم الفضل فى بعث هذه النهضة العلمية التى نرتع بها الآن ، وننظر فى مخلفات قرائحهم بسهولة ، أوَما يرضيك من اليازجى تلك المختصرات الموجزة المبسّطة فى علوم اللغة كالصرف والنحو والبيان ، وهى الطريق الموصلة إلى دراسة هذا الأدب الملقى بين أيدينا ، نتذوق ما فيه من جمال ونتنكب عما فيه من سخفٍ ودناءة .

وإن أنت طلبت علوم اللغة فى مظانّها ، صعب عليك تفهمها لما فيها من شروح واستطرادات وقلة ترتيب ككتاب سيبويه الذى نراه ممزوجاً بكلّ قول من أقوال اللغة ، يتردّد بين الأبحاث الصرفية والنحوية والأدبية على غير تنظيم .

ولا أظنّك تغمط المفضل فتنسى ما سهّل أدباء هذا العصر وعلماؤه ، وما بسّطوا ، ولا أعدو بك بعيداً ، بل أرغب إليك أن تأخذ معجم « محيط المحيط » للمعلم بطرس البستانى وتنظر فيه ، ثم تأخذ الفيروزبادى أو « تاج العروس » أو « لسان العرب » وتنظر فيها ، فلا أظنك إلا واجداً أو واقعاً على الفرق بينها ، إذا ما أردت البحث عن كلمة من مفردات اللغة ، كبحثك عن كلمة « الأصمع »[1] مثلا فإنك تطلبها فى فصل الصاد باب العين ، بينما ترى صاحب « محيط المحيط » قد سهّل عليك الأمر فقال اطلبها فى الحرف المبدوء بالصاد مادة صمَع .

أوَلا يرضيك من اليازجى كتاب « عقد الجمان فى علوم البيان » ذلك المختصر الموجز الذى يغنيك عن المطوّلات ، اللهم إلا إذا كنت بحّاثة عالماً ، وأمّا الأديب فلا يحتاج إلى أوفى مما فيه معرفة لأصول علم البيان والعروض .

فأمام هذه الحقيقة لابد لنا من الاعتراف بفضل كبير أدباء القرن التاسع عشر

(١) الأصمع : الصغير الأذن والأنثى صمعاء .

وعلمائه ، الشيخ ناصيف اليازجى ، قادرين فضله مستدرّين على ضريحه الرحمات كفء حسناته للغة والأدب العربىّ ولأبناء جلدته الذين تأدّبوا بأدبه ، وتفقهوا بما وضعه لهم من الكتب التى سهلت أخذ اللغة أخذاً صحيحاً ، ووفّرت عليهم متاعب جمة ، وما أحرانا أن نتمثل فى الختام بقول سالم بن وابصة :

إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلّة   فكن أنت محتالا لزلتـه عذرا

وحسبنا أن نسهب القول فى كتاب واحد من كتبه وهو « نار القرى فى شرح جوف الفرا » تناول فيه دقائق النحو مستقصياً ما تواطأ عليه الأئمة النحاة فى المذاهب الصحيحة والشرح الدبق ولكى تتبين ذلك لا بد لى من أن أنقل إليك شيئاً قليلا من فاتحة الكتاب وقد قال فيها :

« أقول بعد حمد من يستفتحُ   بحمده ولاسمه يُسبّحُ
قد جمعت ، فى النحو ما سوف ترى ،   أرجوزةً سميتها جوف الفرا
وها أنا فى سردها أقولُ   والله فى توفيقى المسؤولُ

الأرجوزة أفعولة وهو بحر من بحور الشعر ، والفرا حمار الوحش وهو أفضل صيد عند العرب وعلى ذلك قولهم فى المثل "كلّ الصيد فى جوف الفرا" كناية عن الاكتفاء به كأن من يصطاده قد اصطاد كلّ صيد . وهذا هو الوجه فى تسمية هذه الأرجوزة لأنها متضمنة أكثر المسائل المتفرقة فى كتب النحاة . فكأن الواقف عليها قد وقف على كلّ كتاب فى هذا الفنّ » .

وقد جرى فى نظمها على نمط ابن مالك وشرحها على طراز ابن عقيل ، وإن تأملنا كلمة الشيخ فى بدء المقدمة حيث يقول « كلمة النحاة قول مفرد » فى حين نرى ابن مالك يقول « كلامنا لفظٌ مفيد كاستقم » عرفنا أن الشيخ بقوله « كلمة النحاة » أراد أن يدلّل على أن الكلمة عند النحاة فما أراد أن يحسب نفسه منهم تواضعاً ، أو لأن عصره بعيد عن ذلك الذى دوّنت فيه اللغة ، وهو قد أخذ عن الأئمة المشهورين فى هذا الفنّ كسيبويه صاحب « الكتاب » والصبان وشرح الأشمونى عليه وابن مالك وغيرهم . وما أحسب أن ابن مالك يفوق جوف الفرا بشىء أو يمتاز عنه . وإثباتاً لذلك أقدّم نموذجاً مختصراً من الكتابين نظماً ونثراً :

قال الشيخ ناصيف فى أرجوزته :

كلمة النحاة قول مفرد
باسم وفعل وبحرف ترد
وحيث ما أفاد ما يؤلف
منها فذاك بالكلام يعرف

أى أن الكلمة فى اصطلاح النحاة قول مفرد أى لفظ يدل على معنى مفرد كرجل وهى تنحصر فى الاسم لأن ما وضعت له ينحصر فى الذات وهى الاسم والحدث وهو الفعل والرابط بينهما وهو الحرف وأمّا ما يؤلف منها فمتى أفاد الإفادة المعتبرة وهى التامة التى يحسن السكوت عليها نحو : العلم نافع ، فهو الكلام وهو المعتبر عند النحاة . وأعلم أن القول أخص من اللفظ ، لأن اللفظ يشمل المستعمل كرجل والمهمل كجسق والقول يختص بالمستعمل ولذلك عرّفنا الكلمة به[1] .

قال ابن مالك فى ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم
واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم
وكلمة بها كلام قد يؤم

الكلام المصطلح عليه عند النحاة عبارة عن اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها ، فاللفظ يشمل الكلام والكلمة والكلم ، يشمل المهمل كديز والمستعمل كعمرو ، والمفيد أخرج المهمل . وفائدة يحسن السكوت عليها أخرج الكلمة و بعض الكلم وهو ما تركب من ثلاث كلمات فأكثر ، ولم يحسن السكوت عليه نحو : إن قام زيد ، ولا يتركّب الكلام إلا من اسمين نحو : زيدٌ قائم أو من فعل واسم كقام زيد وكقول المصنف كاستقم فإنه كلام مركّب من فعل أمر وفاعل مستتر . . . . وذكر المصنف أن القول يعمّ الجميع والمراد أنه يقع على الكلام أنه قول ويقع أيضاً على الكلمة أنه قول وزعم بعضهم أن الأصل استعماله فى المفرد[2] .

نرى من هذا أن نظم الإمام ابن مالك وشرح ابن عقيل لا يفضلان جوف الفرا بشىء إلا بالأسبقية . ونلاحظ أن الشيخ ناصيفاً قد جرى فى تأليف « نار القرى » على طريقة العالم الخبير الضابط ، ولدى مقابلة الكتابين ببعضهما

(١) « نار القرى » ص ٤ — ٥ المطبعة الأدبية ببيروت .
(٢) شرح ابن عقيل على ابن مالك ص ٢ — ٣ المطبعة العثمانية بصيدا .

نرى أن الشيخ ناصيفاً قد أثبت أصدق المذاهب واطرح الآراء المرجوحة . ومن الذين انتقدوا الشيخ اليازجى ، الشيخ يوسف الأسير ، فألف كتاباً أسماه « كتاب إرشاد الورى فى تخطئة جوف الفرا » فنقد المقدمة واسم الكتاب بصفحات . أكتفى بإيراد فقرة ومنها نحكم على هذا الرد « كما قيل الكتاب يعرف بعنوانه ولكن نقت الضفادع وسكتت البلابل السواجع ، فوا أسفاه على العلم وأهله فقد غلبهم الجاهل بجهله ، وقد هشم ابن هشام وعقل ابن عقيل فى بلاد الشام حين ظهر جوف الفرا وظهرت منه روائح بلا مرا ، والأمر لمن له الأمر[1] » .
ثم يمضى بنقد الكتاب نقداً غير علمى فما رأيت الشيخ الأسير يقصد فى كتابه إلى إظهار الحقيقة بل يريد أن ينال من الشيخ ناصيف كقوله مثلا : « أقول كان صوابه أن يبدل المستعمل بالموضوع لأن الصحيح أن الاستعمال ليس بشرط لتسمية اللفظ الموضوع قولا كما هو واضح وتكلّم عليه كثير من النحاة ، وإن وقع فى عبارة بعضهم ، على أنه كالدجاجة العوراء ينقد الزؤانة ، ويدع القمحة »[2]
وأنا لا أحيلك إلا على ما نقلت لك من شرح الإمام ابن عقيل لتتدبر القول بنفسك وتحكم ، وبعد جولات كثيرة يطلعنا الشيخ الأسير على ما نظمه متحدياً الشيخ ناصيفاً وسأجعل ما نظمه بإزاء ما نظم اليازجى تاركاً الحكم لك :

قال الشيخ يوسف الأسير :

وبالعلامات الأصول المفردا
أعرب كذا المضارع المجردا
وجمع تكثيرٍ وما بالألف
والتاء جمعيه بذى اكتفى
وما سواها بالفروع يعرب
وقيل كلّ بالأصول معرب[3]

قال الشيخ ناصيف اليازجى :

بالحركات مفرداً أعرب وما
يجمع دون ذى ذكورٍ سلما
ومعرب الفعل الذى يجرّد
عن مضمر باد إليه يسندُ
وما سواها أعربته الأحرف
وذاك بالإعراب فرع يعرف[4]

(١) كتاب « إرشاد الورى فى تخطئة جوف الفرا » ص ٤ مطبعة الجوائب الأستانة سنة ١٢٢٠ هـ
(٢) المصدر نفسه ص ٩
(٣) « إرشاد الورى » ص ٢٣
(٤) « نار القرى » ص ٢٣

نقلت لك شيئاً مما تقدم على سبيل التمثيل غير راغب فى أن أتعرض لكتاب « إرشاد الورى » برمته لما فى ذلك من التطويل وخشية الملل من موضوع جافّ والأخذ به يحتاج إلى دراسة خاصّة ، وسبيلى الذى إليه قصدت هو دراسة الشيخ ناصيف دون غيره ، وإنما تعرّضت إلى نقل شىء من انتقاد الشيخ الأسير لليازجى لنوضح صورة عن النقد فى القرن التاسع عشر .

ولكن الشيخ إبرهيم الأحدب الطرابلسى يقول فى اليازجى :

كما أفاد الحكم فى ذا الدنا	نحوى هذا العصر فرد الزمان
شاعر قطر الشام من أصبحت	لـــه أيادٍ ببيـــان المعان

ومنهـــا :

صرفىّ فضل ما نُحى نحوه	له بنقد الشعر أمسى يدان[1]

وبعد هذا لا تسألنى أن أتحدث إليك عن كتاب « عقد الجمان » و « نقطة الدائرة » ولا عن « قطب الصناعة » فى المنطق خشية الملل من مواضيع قد تراها جافة ولا عن معرفته الطبّ على مذهب ابن سينا وقد أخذه عن والده ، وألّف فيه رسالة « الحجر الكريم فى الطبّ القديم » وقد أجلّها العلماء ونشرها الدكتوران بوست والبارودى فى مجلّتهما الطبيب[2] كما ألمعنا إلى ذلك .

٣ ـ منزلة ناصيف اليازجى

علم من أعلام البيان وسيّد من سادة العلم وأركان النهضة العلمية فى لبنان وهو أشهر من أن يعرّف لما كان له من القدح المعلّى فى اللغة والشعر والأدب ، وهو أوّل من راجت كتبه اللغوية فى المدارس العربية من النصارى[3] انقادت له اللغة العربية فتمكن منها وتمسك بجذورها ، فما شردت عنه خاطرة ولا ندّت

---

(١) « فاكهة الندماء » .

(٢) مجلة « الطبيب » العدد ١٤ سنة ١٩٠٢ ص ١٢٥ و ١٥١

(٣) « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٢٥٩ طبعة مصر سنة ١٩١٤ و « تاريخ الصحافة العربية » للكونت دى طرازى ج ١ ص ٨٤ طبعة بيروت .

عنه بادرة إلا أخذ بتلابيبها وتمرّس بأسرار الفصحى وسبر غورها ووقف على حقائقها ودقائقها واحتذى حذو أئمتها الأعلام ، فما قصّر عنهم بشىء . إن لم نقل بذّهم فى كثير من النواحى التى قلما تأتّت لهم من حيث الاختصار والترتيب بلغة جامعة مانعة ، فتحدّى أمتن منشئى العرب بإنشائهم ، وعارض أفخم شعرائهم مقتفياً أنبغ علمائهم فى علومهم المختلفة من صرف ونحو وبيان وبديع ومنطق وطبّ وقد حصّل معارفه هذه على نفسه حتّى غدا أوّل نابغة مسيحى فى القرن التاسع عشر للميلاد[1] تجاوب صدى اسمه فى الأقطار العربية فراسله كبار الأدباء وعيون العلماء ونظروا إليه نظرة اعتبار واحترام ، فكان زهرة عبقة تضوّع أريجها فى الأنحاء العربية . فكان أكبر عامل فى النهضة الحديثة[2] وهو بشهادة أبناء جيله « أنه كان من نوادر الدهر وأفراد رجال العصر الذين باهت بهم الأيام ونشرت مآثرهم بأسنّة الأقلام »[3] فهو فى طليعة الذين بعثوا اللغة الفصحى بعد هجوع طويل وأظهروا محاسنها كما يتضح لمن طالع كتبه وخبرها وتخرّج عليه . فكان حجة فى اللغة والأدب .

طبع على الشاعرية وله فى شعره أسلوب سهل تحدّى به طبقة الشعراء كأبى تمام والبحترى والمتنبى الذى ملك عليه لبّه فأحبّه حبّاً شديداً واستظهره وشرح كثيراً من غوامضه ، وجرى كثير مما نظمه مجرى الأمثال لشيوع مؤلفاته بين أيدى الطلاب ولا سيما فى لبنان وسوريا ، وقد مضى دهر ليس بين الأدباء من لا يحفظ للشيخ قصيدة أو مقامة[4] .

هذا هو الرجل الذى قصصت عليك خبراً من خبره ، مظهراً مآثره ، ناشراً صفحة طويت من صفحات كبار أدباء القرن التاسع عشر .

---

(١) « الغرر التاريخية فى الأسر اليازجية » لعيسى إسكندر المعلوف .

(٢) « فاكهة الندماء فى مراسلة الأدباء » . طبعة صادر . بيروت ١٩٣٢ و « مجلة الآثار » السنة الثانية ١٩١٢ ص ٢١٣

(٣) مجلة « النجاح » . بيروت سنة ١٨٧١ ص ١٩٠

(٤) « تاريخ آداب اللغة العربية » لزيدان . طبعة مصر ج ٤ ص ٢٦٠

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ناصيف اليازجي

١ – ناصيف اليازجي الأديب

ليس الأديب فى عصر المترجم له هو الأديب الذى نعرفه فى هذه الأيام ، فقد كان الإنتاج الفكرى وقتذاك يعتمد على اللغة واصطياد شواردها وأوابدها وعلى محاكاة الأساليب الجزل والتمرس بأدب العرب القديم وتاريخهم وأمثالهم ومحاكاة بيانهم وبلاغتهم ، ولقد سلك اليازجى كل هذا فى نظام أدبه وأضاف إليه كثيراً من علوم عصره وتجتمع آيات ذلك كله فى كتابه « مجمع البحرين » أودعه ستين مقامة نحا فيها نحو من سبقه فى هذا المضمار ولكنه بذهم فى كثير من المواضع والموضوعات وإليك باقة نضيرة من تلك المقامات :

المقامة الطبية

حكى سهيلُ بنُ عبَّادٍ قال : خرَجتُ على فرسٍ جَمُوحٍ[١] . إلى نِيَّةٍ[٢] طَرُوحٍ[٣] . فأزعجنى إهماجاً وخبباً[٤] . وأرهقنى صَعَداً وصبباً[٥] حتى نهَكَنى اللُّغوب[٦] . وأعيانى الرُّكُوب[٧] . فنزلتُ لأَقيل[٨] . وأستقيل[٩] . وإذا ناقةٌ ترعَى . وهى تنسابُ كالأفعَى . فوقفتُ أستشرف[١٠] الهضاب[١١] والوهاد[١٢] . وأنا أُريدُ أن أُبدلها بالجواد . وإذا شيخٌ قد انقضَّ[١٣] على كنَسْرِ لُقمانَ بن عاد[١٤] . وقال هَلَكتَ ولو كنتَ سُهيلَ بنَ عبَّاد[١٥] .

---

(١) يغلب فارسه . (٢) جهة ينوى السفر إليها . (٣) بعيدة .
(٤) الإهماج أشد الركض والخبب ركض مضطرب . (٥) أى حملنى فوق طاقتى صعوداً وانحداراً . (٦) أى أضعفنى التعب الشديد . (٧) أى عجزت عنه .
(٨) أنام نصف النهار . (٩) أطلب الإقالة من الجهد . (١٠) أنظر ويداى فوق حاجبى . (١١) التلال . (١٢) الأراضى المنخفضة . (١٣) هجم .
(١٤) يقال إن لقمان كان يعنى بتربية النسور فربى سبعة منها وهلكت إلا واحداً كان أشدها وهو لبد . (١٥) قال ذلك . وهو قد عرفه ولمح أنه يريد أن يأخذ الناقة .

فتوسَّمتُهُ[١] من تحت اللِّثام . وقلت قاتلكَ اللهُ ولو كنتَ ميمونَ بنَ خزام . فضحك ثم كبَّر[٢] . وقال الاجتماعُ مقدَّر[٣] . ثم قال الطَّعام . يا غلام . فأحضر ما تَسَنَّى[٤] . ثم اندفع فتغنَّى . قال فكان عندى أُنسُ ذلك اللقاء . أطربَ من شدْوِ[٥] سلاَّمةَ الزرقاء[٦] . وبتُّ معهُ ليلةً من ليالى الدهر[٧] . أحسبُها خيراً من ألف شهر . حتى اشتعلَ رأسها شيباً . وعَطَّ[٨] الصباحُ لدَيجورها[٩] جَيباً[١٠] . فاستوى الشَّيخ على القَتَب . وقال أجيبوا داعىَ الله إلى ما كَتَب . فأوفَضْنا فى مفازةٍ صَلْدة[١١] . حتى أفضينا[١٢] إلى بَلدة . بها مدرسةٌ للطبّ عن الحِرثِ بن كَلَدة[١٣] . فحللناها حُلولَ النّونِ[١٤] فى القِفار . أو الضَّبِّ[١٥] فى البحار[١٦] . ولما انجابت[١٧] وعكةُ[١٨] السَّفر . خرج الشَّيخ فى ارتياد[١٩] الظَّفَر . حتى أتينا المدرسة وهى حافلةٌ بالطَّلبة . وقد قام فى صدرها شيخٌ طويل الأرْنَبة[٢٠] . عظيم العرْتَبة[٢١] . فقال الحمد لله الذى شرَّف علمَ الأبدان . حتى قدَّمَ على علم الأديان[٢٢] . أما بعدُ فإن هذا العلم أفضل علوم

---

(١) أى عرفته بعلاماته . (٢) قال الله أكبر . (٣) أى أنه يكون بأمر الله وقضائه . (٤) تهيأ . (٥) غناء . (٦) هى جارية كانت لجعفر بن سليمان بن عبد العزيز الأموى اشتراها بثمانين ألف درهم . وكانت توصف بحسن الصوت وطيب الغناء . قيل إنها غنت يوماً بحضرة معن بن زائدة الشيبانى وروح بن حاتم المهلبى وابن المقفع . فأفرغ معن بين يديها بدرة من المال وفعل روح كذلك ولم يكن عند ابن المقفع مال فأعطاها صكاً فيه عهدة ضيعة له.
(٧) أى من لياليه المعهودة . (٨) شق . (٩) ظلامها . (١٠) زيق القميص من أعلاه . (١١) أى أسرعنا فى فلاة صلبة . (١٢) انتهينا . (١٣) هو رجل من بنى ثقيف كان طبيب العرب وكان حاذقاً فى صناعته . أخذ الطب عن الفرس فبرع فيه . وكانت وفاته فى خلافة الإمام عمر . (١٤) الحوت . (١٥) دويبة برية . (١٦) يعنى أننا نزلنا بها غرباء لأنها ليست مكاناً لنا . (١٧) انكشفت وزالت . (١٨) أثر التعب .
(١٩) طلب . (٢٠) طرف الأنف . (٢١) طرف الحجاب الذى بين المنخرين .
(٢٢) إشارة إلى ما ورد فى الحديث من قوله العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان .

الدنيا جميعاً[١] . لأنهُ أشرَفها موضوعاً . وهو أدقُّها نظراً . وأجلُّها خطراً[٢] . وأقدمُها وضعاً . وأعظمها نفعاً . وأغمضُها سريرة[٣] . وأوسعها حظيرة[٤] . وهو يستطلعُ الخبايا . ويستوضحُ الخفايا[٥] . حتى قيل إنهُ وَحْىٌ قد هَبَطَ على الأطبَّاءِ . كما هبطَ الوحىُ على الأنبياءِ . وصاحب هذه الصِّناعة أروَجُ[٦] الناس بضاعة . وأربحهم تجارة . وأشهاهم زِيارة . وأكسبُهم أُجرةً وأجراً . وأنفذُهم نهياً وأمراً[٧] . وعليه مدارُ الأعمال والمِهن[٨] وقيامُ الفروض والسُّنَن . فإِن كلَّ ذلك لا يتمُّ إلا بصِحة البدن . وطالما كان هذا الفنُّ أعزَّ من جبهة الأسد[٩] . حتى اغتالهُ الجهلاء فأوثقوا جِيدَه[١٠] بحبلٍ من مَسَد[١١] . فواهاً[١٢] لهُ كيف ثُلَّ[١٣] عَرشُهُ[١٤] . وآهاً[١٥] لعليلهم[١٦] كيف قُلّ[١٧] نَعشُهُ . قال وكان فى الحضرة فتىً باهرُ اللَّطافة . ظاهرُ القَضافة[١٨] . فقال يامولاىَ إنى قد مُنِيت[١٩] بجهل المتطبّبين[٢٠] الرَّعاع[٢١] . الذين لا يعرفون الصافن[٢٢] من حبل الذّراع[٢٣] . فلعلَّكَ توصينى بما يكون غُنْيةَ اللبيب . عندَ غيبةِ الطبيب[٢٤] . فأطرق هُنيهةً للتروية[٢٥] . ثم هبَّ[٢٦] فى التوصية . فقال :

(١) أى العلوم الدنيوية أفضل احترازاً من العلوم الدينية . (٢) شرفاً .
(٣) لأنه يتعلق بالخفايا المكنونة فى بواطن الأجسام .
(٤) هى فى الأصل ساحة تحاط بسياج للغنم ثم استعملت لغير ذلك . (٥) لأنه يكشف الأمراض الباطنة بالدلائل الخارجية ، ويهتدى به إلى قوى الأدوية وطرق المعالجات .
(٦) أنفق . (٧) أى على المرضى . (٨) الصنائع . (٩) مثل فى العزة والمنعة . (١٠) عنقه . (١١) ليف . (١٢) كلمة تحبب .
(١٣) كسر أو هدم . (١٤) كرسيه . أى كيف ذهب عزه . وهو مثل .
(١٥) كلمة تحسر . (١٦) أى العليل الذى يعالجونه . (١٧) رفع .
(١٨) نحافة الجسم . (١٩) بليت . (٢٠) المدعين بالطب .
(٢١) الأحداث السفلة . (٢٢) عرق فى الرجل . (٢٣) عرق فى اليد .
(٢٤) أى يكون غنية للعاقل عند غيبة الطبيب الصحيح . وهو اسم كتاب فى الطب وضعه الشيخ شمس الدين محمد بن برهان الدين الأكنانى . (٢٥) التفكر . (٢٦) شرع .

يا بُنَىَّ لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع . وقم وأنت بما دونَ الشِّبع[١] قانع . وباكِر فى الغداءِ . ولا تماسَ فى العشاءِ . والزم الرّياضة[٢] على الخلاءِ . واجتنبها عند الأمتلاءِ . ولا تُدخِل طعاماً على طعام[٣] . ولا تشرب بعد المنام . ولا تُكثِر من الألوان[٤] . على الخِوان[٥] . ولا تَعجَلْ فى المضغ والإِزْدراد[٦] . واُجْتَنِب كلَّ ما لم ينضج[٧] وما باتَ من الطّعام فهو مَجلَبةٌ للفساد[٨] . وإذا أمكنتك الوجبة[٩] . فهى أفضلُ نخبة . واُقطعِ العادة المُضِرَّة . مرَّةً بعد مرَّة[١٠] . وعليك بتنقية الفُضُول[١١] . فى مُعتدلاتِ الفُصُول . وإذا مرِضتَ فقابلِ السّبب[١٢] . واُحرِص على القوَّة فإنها إلى الحياة سبب[١٣] . وبالغ فى الدّواءِ . ما شعرتَ بالدَّاءِ . ودعهُ[١٤] متى وثِقتَ بالشِّفاءِ . وإذا استغنيتَ بالمُفرَدات[١٥] . فلا تعدل إلى المركَّبات . وإذا اكتفيتَ بالأغذية . فلا تتجاوزْ إلى الأدوِية[١٦] . وإذا تعاظم العَرَض . فاشتغل بهِ عن المرض[١٧] . واعتمد الحِمْيةَ الواقيةَ ، ما دامت العِلَّةُ باقيـة . واحذَر دواعىَ النَّـكْس[١٨] .

(١) اسم لما يشبع من الطعام . (٢) الحركة المؤثرة تعباً . (٣) أى لا تأكل قبل الهضم لأن الطعام الثانى يشغل المعدة عن هضم الأول فيفسد . (٤) أى أصناف الطعام . (٥) المائدة . (٦) المضغ طحن الطعام بين الأضراس والازدراد البلع . يريد أن العجلة فيهما ترد بالطعام على المعدة جافياً فيشق عليها هضمه .
(٧) يشمل ما لم ينضج من الطعام والثمر . (٨) أى لفساد الطعام فى المعدة لعسر هضمه فلا تحسن التصرف فيه . (٩) الأكل مرة واحدة فى النهار .
(١٠) أى بالتدريج . قال الشيخ الرئيس فى أرجوزته :

وكل عادة تضر أهلهـــا   فاقطع بتدريج الزمان أصلها

(١١) الأخلاط . (١٢) أى انظر إلى السبب وعالجه بضده كما إذا كان المرض عن حرارة فعالجه بالبارد . (١٣) وسيلة . قالوا إن القوة للمريض كالزاد للمسافر .
(١٤) اتركه . (١٥) أى بالدواء المفرد البسيط . (١٦) أى إذا وجدت غذاء ينفع من المرض فهو أفضل من الدواء لأنه لا يفعل بالطبيعة ما يفعله الدواء من القهر والنكاية .
(١٧) أى إذا حدث عرض شديد يخشى منه سقوط القوة فاشتغل بعلاجه حتى يزول . ثم ارجع إلى علاج المرض . (١٨) الرجوع إلى المرض بعد التخلص منه . وهو بالضم فى الأصل والفتح لغة فيه كما فى الصحاح .

فإنهُ شرٌّ من العِلّةِ بالأمس[١] . وأعلم أنَّ التجربة خطر[٢] . فكن منها على حذَر . والعِلاج بين أستفراغ الحاصل . وقطع الواصل[٣] . والصِحَّة تُحفظ بالشِبْه وتُستَرَدُّ بالنقيض[٤] . والحِمْيَةُ للصّحيح كالتخليط[٥] للمريض . واستعمال الدّواء حيثُ لا يحتاج . كتركهِ عند حاجة العِلاج . والمُضِرُّ اليسير . خيرٌ من النّافع الكثير . وكلُّ ما عسُرَ قضمُهُ[٦] شقَّ[٧] هضمُهُ . ومن كثُرَت تُخَمُهُ[٨] . تفاقم[٩] سقَمُهُ . وأكثر الأوصاب[١٠] . يكون من الطّعام أو الشّراب . فاحفظ عنى هذه المواعظ . واحتفظ بها والله الحافظ . قال فلما فرغ من كلامهِ الموضون[١١] . برز شيخنا الميمون . وقال إنى لأَراك من أهل الفضل والفصل . وأر باب العقل والنقل . ولقد عَثَرتُ على مسائل . فى كتب الأوائل . فهل تأذنُ بدفع الظّنَّة . ولك المِنَّة . قال حبَّذا . فقُل إذا[١٢] . قال ما هو الدّشْبَذ[١٣] . وكم هى الدّلائل التى تؤخذ[١٤] . وما هو أعدلُ الأعضاءِ بالنسبة إلى بقيَّة الأجزاء[١٥] . فأخذ الأستاذ فى تقليب رأيهِ . حتى أفرَطَ فى لأيهِ[١٦] . ثم

(١) أى المرض الذى كان قبلا . (٢) يريد تجربة الأدوية المجهول أمرها فإنها خطر على المريض يخشى هلاكه بها أحياناً . (٣) أى أن العلاج يكون باستفراغ ما قد تولد منه المرض أولا ومنع تجدده ثانياً .
(٤) أى أن الصحيح يحفظ صحته بما يوافق مزاجه . وإذا زالت يسترجعها بما يناقض مزاج المرض . (٥) ضد الحمية . قالوا إن اثنين لا يصحان : المريض المخلط والصحيح المحتمى .
(٦) مضغة . (٧) عسر . (٨) جمع تخمة وهى فساد الطعام فى المعدة .
(٩) تكاثر . (١٠) الأمراض . (١١) المسرود . (١٢) أى فقل إذن قبلت نونها ألفاً للوقف . (١٣) هو مادة غضروفية تنبت على طرف العظم المكسور ليلتحم بها . (١٤) قالوا إن الدلائل ثلاث . إحداها المذكرة . وهى التى تذكر الطبيب بما مضى من الأعراض فيستدل به على سبب المرض وكميته . والثانية الحاضرة . وهى التى تدل على حقيقة المرض الحاصل . والثالثة المنذرة . وهى التى تدل على ما سيحدث . (١٥) قالوا إن أعدل الأعضاء مزاجاً بالنسبة إلى غيره من أجزاء البدن هو الجلدة التى على طرف السبابة من اليد . خلقت كذلك لأنها معرضة غالباً للمس فتحتاج إلى الاعتدال فى نفسها لإدراك ما تلاقيه من الملموسات فيفرق بها بين الخشونة والملاسة ونحوهما . (١٦) إبطائه .

قال إن الإنسان موضعُ النسيان[١] . فهل من مسائلَ أُخرَى . لعلّى أُصادفُ بها الذّكرَى . قال قد رميتك بالفصيح فاُستعجَم . فهل تفرَّقُ[٢] من صوت الغُراب وتَفرِسُ الأسدَ المشبَّ[٣] . هيهات إن العلم بتحقيق القضايا . لا بتنميق[٤] الوصايا . فغلب على الرّجل الوُجُوم[٥] . ولَعبت بالقوم الرُّجُوم[٦] . حتى قالوا للشّيخ مِثلُكَ من يستحقُّ الإمامة[٧] . فهل لك عندنا من إقامة . قال قد علمتم أن النقلة . ثِقلة . ولا سيَّما مع تطارُح الشُّقَّة[٨] . وتطاوُح[٩] المشقَّة[١٠] . فإن خفَّفتم عنّى بالإمداد[١١] أتيتكم كوَرْى الزّناد[١٢] . فنفحوهُ[١٣] بعِدَّةٍ من الدنانير . وقالوا استعِن باللهِ واللهُ على كل شيءٍ قدير . قال سهيلٌ فلما فصلنا عن المكان أخذ الشّيخ مجلساً مكتوماً . ثم برز فناولنى طِرْساً[١٤] مختوماً . وقال إذا أصبحتَ فألقهِ إلى القوم . ولا تثريب[١٥] عليك ولا لوم . فأجبتُهُ إلى ما طلب . وإذا به قد كتَب :

أنا ذاكَ الطّبيبُ وإنَّ طِبّى | لنفسى لا لزيدٍ أو لعمرِو
وما عالجتُ سُقْمَ النّاسِ يوماً | ولكنّى أُعالجُ سُقْمَ دهرى
إذا ما مسَّنى ضنكٌ[١٦] فعندى | جُوارِشُ[١٧] حيلةٍ وشَرابُ مكرِ

فلما وقفوا على أبياتهِ . تعوّذوا باللهِ من آفاتهِ . وقالوا إن لم يكن طبيباً .

(١) مثل . (٢) تخاف . (٣) من الشبام وهو عود يعرض فى فم الجدى لئلا يرضع . استعمل ذلك للأسد كناية عن شدة الجوع . وهو مثل يضرب لمن يقدم على الأمر الخطير وينزعج من اليسير . قيل أصله أن امرأة افترست أسداً ثم سمعت صوت غراب فانذعرت منه .
(٤) زخرفة . (٥) السكوت حزناً . (٦) الظنون . (٧) أن يكون إماماً . (٨) تباعد المسافة . (٩) تقاذف . (١٠) التعب .
(١١) الإسعاف . يريد الإسعاف بالمال ليستعين به على مهمات السفر .
(١٢) سقوط الشرار من الزند عند اقتداحه . (١٣) أعطوه . (١٤) قرطاساً مكتوباً . (١٥) توبيخ . (١٦) ضيق . (١٧) سفوف .

فكفى بهِ لبيباً[١] . فهل لك أن ترُدَّهُ علينا لظرْفهِ[٢] . إن لم يكن لعُرفهِ[٣] . قلتُ ذاك مما لا يَقرُب . فإنهُ أَجوَلُ من قُطرُب[٤] . ورجعتُ إلى مَوعِدنا[٥] أمس . فوجدت أنهُ قد أفَلَ[٦] قبل الشمس .

المقامة الحجازية

حَدَّثَ سهيلُ بن عبَّادٍ قال : نهضْتُ من الأَهواز[٧] . أُريدُ قُطرَ الحجاز فخرجتُ أطوى السّباسبَ[٨] والبسابسَ[٩] . فى عُصبةٍ[١٠] من أُولى الخلابِس[١١] . فكنتُ أتفكهُ منهم بالحديث . وأتنقَّلُ منهُ بالقديم إلى الحديث[١٢] . وما زلنا نطعنُ[١٣] فى المفاوز[١٤] ونضرب[١٥] . حتى دخلنا مدينة يَثرِب[١٦] . فأقمنا بها غِرارَ[١٧] شهر . كغُرَّةٍ فى جبين الدهر . وبينما نحنُ فى ليلةٍ بين الرِّحال . إلى جيرةٍ بمكان الكُليتين من الطِّحال[١٨] . سمعنا زفرةَ[١٩] متنهّد . يليها صوت كئيبٍ يُنشِد :

يا مَن يردُّ علىَّ ما فقَدَت يدى ... هيهاتِ ليس يُرَدُّ أمس إِلى الغدِ
فقدَت يدى طيبَ الحياةِ وهل ترى ... لى مطمعٌ فى الغابر[٢٠] المتجدِّدِ

(١) عاقلا . (٢) ظرافته . (٣) أى علمه . (٤) دويبة تجوب الليل كله لا تنام . وهو مثل . (٥) مكان اجتماعنا . (٦) غاب .
(٧) تسع كور بين البصرة وفارس . (٨) الفلوات المهلكة . (٩) القفار .
(١٠) جماعة . (١١) الحديث الرقيق . (١٢) يحتمل أن يكون من النقل الذى يستعمل كالفاكهة ونحوها أى انتقل منه بالقديم حتى انتهى إلى الحديث . وأن يكون من معنى الانتقال أى انتقل بواسطة ذكر القديم منه إلى ذكر الحديث على سبيل الاستطراد . (١٣) نذهب .
(١٤) فلوات لا ماء فيها . (١٥) نسير فى طلب الرزق . (١٦) مدينة الرسول
(١٧) مقدار . (١٨) أى ملاصقة لنا وهو من قوله :
فكونوا أنتم وبنى أبيكم ... مكان الكليتين من الطحال
(١٩) نفساً طويلا . (٢٠) الباقى .

ماذا يفيد العيشُ صاحبَ كُربةٍ ... لهفانَ يُمسى فى الهمومِ ويغتدى
الموت أطيب مِن حياةٍ مُرَّةٍ ... تُقضى لياليها كقضمِ[١] الجلمدِ[٢]
مضَتِ الليالى البيضُ فى زمن الصِّبا ... وأتى المشيب بكل يومٍ أسودِ
يا حبَّذا ما فرَّ من أيّامنا ... لو كان يُمسَك عندنا كمُقيَّدِ
أنفقتُ صفو العيش حتى إنهُ ... لم يبقَ لى إلَّا ثُمال[٣] المَورِدِ
يا ليتَ ذى الأكدارَ أولَ معهدٍ ... كانت وذاك الصفوَ آخِرَ معهدِ
ويحى متى أُمسى ولى نَفْسٌ بلا ... صَعَدٍ[٤] وأنفاسٌ بغير تصَعُّدِ
ما كنتُ أحسدُ سيِّدًا فى ملكهِ ... واليوم أحسدُ عبدَ عبدِ السيِّدِ

قال فلما سمع القوم لهجتهُ الشجيَّة[٥] . ورأوا مالهُ من سلامة السجيَّة[٦] . رقَّت أفئِدتهم عليهِ . وصبَت[٧] عواطفهم إليهِ . وقالوا هل لنا من يطرق[٨] مضجَعَهُ . ويؤنِسنا بالتمازج مَعَه . فما عتَّم[٩] الرّجل أن وقف بنا منتصباً . وأنشدنا مقتضباً[١٠] .

أنا الذى ساح[١١] البلا فى ساحتى ... أباحَ سِرّى واستباحَ باحتى[١٢]
روحى كرَيحانى وراحى راحتِ ... ريحاً[١٣] فراحت راحتى من راحتى

فاستحلى القومُ هذا التجنيس . وأحلُّوا الرجل محلَّ الأنيس . ثم استطلعوهُ طِلعَ أمرِهِ . وما ذاق من خَلِّهِ وخمرِهِ . فقال يا كرام العرب وكعبة الأرب .

(١) أكل بأطراف الأسنان . (٢) الصخر . (٣) ما يبقى فى أسفل الحوض .
(٤) أى مشقة وشدة . (٥) المطربة . (٦) الطبيعة . (٧) مالت .
(٨) يأتى ليلا . (٩) أبطأ . (١٠) مرتجلا . (١١) من السياحة .
(١٢) ساحة دارى . (١٣) أى مثل الريح .

إنى لقد كنت أفرى[١] . وأقرى . وأفدى. وأسدى[٢] . وما زلتُ أُلبِسُ وأُطعِم . وأُجيز وأُنعِم . حتَّى ذهب ما فى السَّفَط[٣] جُزافاً[٤] . ونَفِدَ[٥] ما فى الكظيمة[٦] استنزافاً[٧] . فصِرتُ أَجوَع من ذُؤالة[٨] . وأعطشَ من ثُعالة[٩] . وإنى لَطالما كانت تصدع[١٠] وطأَتى الصَّفا[١١] ويَخدش براجمى[١٢] السَّفا[١٣] . فصرت أمشى بقدم الأخنب[١٤] . وأَبسُط راحة الأكنب[١٥] . ولم يُبْقِ لىَ الدهر سوى ولد . أذلَّ من بيضة البلد[١٦] . وقد خطبت لهُ جارية تعولنى وإيَّاهُ . لِأَقضِىَ غابر هذه الحياة . فلما حان الهِداء[١٧] وآن البناء[١٨] . قال ذَوُوها[١٩] لاصهار إلَّا بالإمهار[٢٠] . فنقدتهم ما راج[٢١] . وخرجت أسعى بما غبر[٢٢] كجابى الخراج . وقد أبرزتُ لكم حضيضتى . وبضيضتى[٢٣] . وأطلعتكم على عُجَرى وبُجَرى[٢٤] فإن أحسنتم فأنا من الشَّاكرين . وإلّا فإنى من العاذرين . فاستحسنوا إشارَتَهُ واستلطفوا عِبارَتَه . وقالوا رَحُبَتْ بك الدّار. وحباهُ[٢٥] كلٌّ واحدٍ بدينار. فانثنى[٢٦] وهو يُثنِى جميلًا . ويمشى ذميلًا[٢٧] . فلما أصبحتُ قصدتُ

---

(١) أقطع . (٢) أحسن . (٣) وعاء كالصندوق يابس بالجلد .

(٤) أى بلا نظام . (٥) فرغ . (٦) بئر بجانب أخرى بينهما مجرى فى الأرض . (٧) يقال نزف ماء البئر إذا نزحه كله . (٨) علم للذئب وهو مثل فى الجوع . (٩) علم للثعلب وهو مثل فى العطش . (١٠) تشق . (١١) جمع صفاة وهى الصخرة الملساء . (١٢) مفاصل أصابعى . (١٣) شوك البهمى ونحوها يريد أنه كان قوى الأعضاء لكنه ناعم مترفه لكثرة الرغد وسعة العيش . (١٤) الضعيف الرجلين . (١٥) من غلظت يده من العمل . (١٦) عش النعام وهو مثل يقال فلان أذل من بيضة البلد . قالوا هى بيضة تتركها النعامة فى فلاة من الأرض فلا ترجع إليها .

(١٧) الزفاف . (١٨) أى بناء الخيمة عليها للدخول بها . (١٩) أى أهلها .

(٢٠) أى لم يعطوه إياها حتى يقبضوا المهر . (٢١) تيسر . (٢٢) بقى .

(٢٣) أى كل ما عندى . (٢٤) أى عيوبى وكل أمرى .

(٢٥) أى أعطاه . (٢٦) رجع . (٢٧) مشياً دون السريع .

مثواهُ[١] . لِأَصطبحَ[٢] بنجواه[٣] . وإذا هو صاحبُنا ابن الخِزام[٤] . وقد قام لديهِ ذاكَ الغُلام[٥] . فقلت أهذا الخطيب المعهود . فأَين المِلاك[٦] المشهود[٧] . قال أرجو أن يكونَ خطيباً[٨] . فإنى أراه لبيباً . ثم قال يا بُنىَّ إن الرامى بعِلّة الوَرَشان[٩] . يأكلُ رُطَبَ المُشان[١٠] . وهذه إحدى حُظَيَّات[١١] لُقمان . فإن رأيتَ ما سيكونُ ذَهَلتَ عمَّا كان . واعلم أن العيش نُجعة[١٢] والحرب خُدعة[١٣] . فإذا لم تَغلِبْ. فاُخلِبْ[١٤] . وإذا بُليتَ بسوءِ المَصير . فعليك بحسن التدبير . فلَبِثتُ عندهُ يومى أجمع . أتمتَّع بالمنظر والمسمع . وهو يُطرِفنى بما مرَّ برأسهِ من العِبَر . ويُحدّثُنى بما خَتَل[١٥] وخَتَرَ[١٦] . والخُبْرُ عندى يَعضُد الخبَرَ[١٧] . إلى أن زالت[١٨] الشَّمس أو كادت تزول . فاستلقى[١٩] على وسادتهِ وأنشأَ يقول :

---

(١) منزله (٢) من الصبوح وهو الشرب فى الغداة . (٣) أى بمحادثته . (٤) أى الشيخ ميمون صاحبه فى السفرة الأولى . (٥) أى الغلام الذى كان معه وهو رجب خادمه .

(٦) وليمة الخطبة . (٧) الذى يحضره الناس . (٨) صرف معنى الخطيب الذى ذكره سهيل إلى معنى الواعظ ودل عليه بقوله إنى أراه لبيباً وهو يريد أن يعرفه بأن تلك حيلة منه . وذلك من باب تلقى المخاطب بغير ما يترقب وهو من مباحث علم المعانى .

(٩) طائر وهو ذكر القمارى ويقال له ساق حر . (١٠) نوع من التمر . والعبارة مثل أى أن الصياد بحجة سعيه فى أثر الصيد يدخل بين النخل فيأكل التمر بهذه العلة . يضرب لمن يتظاهر بطلب شيء والمراد منه شيء آخر . (١١) جمع حظية مصغر حظوة وهى سهم صغير لا نصل له . . ولقمان هو ابن عاد المشهور . وكان من حديثه أن عمرو بن ثفن بن معوية العادى طلق امرأته فتزوجها لقمان وكانت لا تزال تذكر عمراً زوجها الأول ، فكان ذلك يغيظ لقمان . ولما ضجر من كثرة ذكرها لعمرو قال أكثرت من ذكره فلأقتلنه . وكان لعمرو وأخيه كعب سمرة يستظلان بها حتى ترد إبلهما فيسقيانها . فصعد لقمان إلى السمرة وكمن فيها حتى وردت الإبل فتجرد عمرو وأكب على البئر يستقى . فرماه لقمان من فوقه بسهم فأصاب ظهره . فصاح عمرو متوجعاً فقال لقمان هذه إحدى حظيات لقمان . فذهب مثلا يضرب لمن عرف بالشر ثم جاءت منه هنة يسيرة .

(١٢) طلب المرعى فى مكانه . (١٣) مثل . (١٤) أخدع وأصله الضم لكنهم كسروه للمزاوجة وهو مثل . (١٥) خدع . (١٦) غدر . (١٧) أى أن اختباره له بما شاهده منه يصادق أخباره عن نفسه . (١٨) مالت إلى الغروب . (١٩) نام على ظهره .

أعوذ بالمهيمن[١] الفيّاض … من أهل هذا الزمن المتاض[٢]

أسلمهم كالأرقم[٣] النضناض[٤] … يلسع كلّ قادم وماض

إياك يا صاح من التغاضى[٥] … واحذر ولو من طلحة الفيّاض[٦]

من عاشر الخلق بخلق راض … وباشر الجفون بالإغماض

هيهات أن يخلو من انقباض … ما الختل يا بنى من أغراضى

لكن تصدى[٧] الظلم لانتهاضى … أن أدفع الأمراض بالأمراض

والظلم من خبائث الحياض[٨] … يلجى[٩] إلى تدنّس الأعراض

لو أنصف الناس استراح القاضى[١٠]

قال ولما فرغ من ارتجازه[١١] دعا بالطعام . وقطع الكلام . فجلسنا نتناول ما حضر . ثم قمنا نتذاكر السّمر[١٢] . فى ظل القمر . إلى أن تهافت[١٣] الليل . ومال علىّ الكرى[١٤] كلّ الميل . فأوغلت[١٥] فى النوم حتى حذّتنى[١٦] قارصة الشمس . وإذا الشيخ قد ارتحل فساءنى اليوم أكثر مما سرّنى أمس .

---

(١) من أسماء الله ومعناه الشاهد . (٢) الظالم . (٣) الحية التى فيها سواد وبياض . (٤) المتلفت يميناً وشمالا . (٥) التغافل . (٦) رجل من كرام العرب وهو طلحة بن عبد الله التميمى أحد الطلحات الخمسة المشهورين عندهم . والأربعة الآخرون هم طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ويقال له طلحة الندى . وطلحة بن عمرو بن عبد الله التميمى ويقال له طلحة الجود . وطلحة بن عبيد الله ويقال له طلحة الخير . وطلحة بن عبد الله ابن خلف الخزاعى ويقال له طلحة الطلحات . قيل إنه وهب فى سنة واحدة ألف جارية فكانت كل جارية إذا ولدت غلاماً سمته طلحة فقيل له ذلك . (٧) تعرض . (٨) جمع حوض وهو بركة الماء . (٩) يضطر . (١٠) مثل . (١١) أى من إنشاده هذه الأبيات التى هى من بحر الرجز . (١٢) حديث الليل . (١٣) تساقط متتابعاً . (١٤) النعاس . (١٥) تعمقت . (١٦) لذعتنى .

المقامة العقيقية

حكى سهيل بن عبّاد قال : بكرت يوماً بكور الزّاجر[١] . فى معمعان[٢] ناجر[٣] . خوفاً من اصطكاك[٤] الهواجر[٥] . فأمعنت[٦] فى السّياحة . وجعلت أقطع ساحة بعد ساحة . حتى إذا تخلّلت[٧] بعض الغيطان[٨] . وقد سال عليها مخاط الشّيطان[٩] . رأيت كتيبةً[١٠] من الرّجال . على كثيب[١١] من الرمال . فبذلت فى شاكلة[١٢] الجواد المهماز[١٣] . ووردت صدور الأرض على الأعجاز[١٤] حتى أدركت القوم . فى منتصف اليوم . وإذا جنازةٌ قد أودعوها التراب . وشيخ على دكّة[١٥] قد افتتح الخطاب . فقال يا كرام المعاشر[١٦] والعشائر . وأولى الأبصار والبصائر . أرأيتم ما أحرج[١٧] هذا البيت . وأسمج هذا الميت . طالما جدّ وكدّ . واشتدّ واعتدّ . وركب الأهوال . واحتشد[١٨] الأموال . فانظروا أين ما جمع . وهل أتى بشىء منه إلى هذا المضجع . وطالما شمخ[١٩] . وبذخ[٢٠] وأسرف واستطرف[٢١] . وتأنّق[٢٢] فى الطّعام والشراب . واستكرم المهاد[٢٣] والثّياب . وتضمّخ[٢٤] بالعبير[٢٥] والملاب[٢٦] . فاعتبروا كيف صار جيفةً لا تطاق . وكريهة لا تستطيع أن تلحظها الأحداق . فإن كنتم قد ضمنتم الخلود[٢٧] . وأمنتم اللحود .

---

(١) الذى يتفاءل بالطير فيبكر فى التعرض لها عند مرورها . (٢) شدة الحر . (٣) اسم لأشهر الصيف . (٤) اشتداد الحر . (٥) جمع هاجرة وهى نصف النهار عند اشتداد حره . (٦) بالغت . (٧) يقال تخللت القوم أى دخلت بينهم . (٨) الأراضى السهلة . (٩) غزل عين الشمس . (١٠) جماعة . (١١) تل . (١٢) خاصرة . (١٣) ما ينخس به . (١٤) أى جعلت ما أمامى ورائى . (١٥) مسطبة . (١٦) جماعات الناس . (١٧) أضيق . (١٨) جمع . (١٩) تكبر . (٢٠) اعتز . (٢١) تنقل من طعام . إلى آخر . مأخوذ من قولهم ناقة مطراف أى لاتثبت على مرعى واحد . (٢٢) أتقن واستجاد) (٢٣) المضاجع . (٢٤) تلطخ . (٢٥) أخلاط من الطيب . (٢٦ نوع من الطيوب . (٢٧) البقاء .

فتمتَّعوا بشهواتكم مليّاً[1] . واتركوا ما رأيتم نِسْياً مَنْسِيًّا . وإلا فالبِدارَ البِدار . إلى طرح العالم الغرّار . فإن السّعيد من نظر إلى دينهِ دون دُنياه . وأخذ الأُهبة لأُخراه قبل أُولاه . والشقىُّ من نظرَ قريباً . فبات خصيباً . وعاش رحيباً . وغَفَلَ عن يومٍ يجعلُ الولدانَ شِيباً[2] . ثم فاضت عيناه بالدّموع . وأطرق[3] برأسه من الخشوع . وأنشد :

واهاً[4] لمن خاف الإلهَ واتّقى — وعافَ مُشترى الضلال بالهُدى
وظلّ يَنهى نفسه عن الهوى — إنّ إلى الربّ الكريم المنتهى
وليسَ للإنسانِ إلا ما سعى — نعَمْ وإنّ سَعيَهُ سوفَ يُرى
ماهذهِ الدّنياسوى طَيْفٍ[5] كرى — فانتبهوا يا غافلينَ للسُّرى
وشمِّروا الذّيلَ وبادروا الوَحى[6] — من قبل أن يدعوكُم داعى الرّدَى[7]
واطّرحوا كُلَّ نعيمٍ وغِنى — واستهدفوا[8] لوقعِ أسهمِ البِلى
وأقرضوا اللهَ فنعمَ من وفى — ما أجهلَ النّاسَ وأذهلَ النُّهى[9]
لو أنّ هذا المال فى هذا الورى[10] — قال ألَسْتُ ربَّكم قالوا بلى

ولما فرغ من أبياته زَفَرَ[11] زَفرةَ الضِّرام[12] . وقال كلُّ من عليها[13] فانٍ ويبقى وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام ونزل وهو يمسح عَبَراته[14] بفضلة اللِّثام.

(١) طويلا . (٢) جمع أشيب . (٣) نظر إلى الأرض .
(٤) كلمة تحبب . (٥) الخيال يأتى فى النوم .
(٦) عاجلا . (٧) الموت . (٨) اجعلوا أنفسكم هدفاً وهو ما ينصب ليرمى بالسهام . (٩) العقول . (١٠) الخلق . (١١) أخرج نفسه بعد مده إياه . (١٢) يقال زفرت النار إذا سمع لها صوت عند التهابها . (١٣) أى على الأرض .
(١٤) دموعه .

فخُيِّل للقوم أنهُ قد هبط من السماء وقالوا هذا ممّن يمشى على الماء . ثم أقبلوا يُهرَعون[1] إليه وطفِقوا يُقبِّلون يديه . ويتبرّكون بمسّ بُردَيهِ[2] . وأتحفهُ كلٌّ منهم بما شاء وقالوا له الدّعاء . فلما أحرز المال هبّ[3] إلى الفرَس . بأسرعَ من رَجْع النَّفس . وقام القوم فودّعوه . ثم تطرّقوا[4] فشيّعوه[5] فلما أبعد عن الرّبْوة[6] . قِيدَ[7] غلوة[8] . إذا امرأةٌ كأنها من حُور[9] الجنان. تنتظرهُ على المكان . فتأفّف[10] وقال يا لَكاعِ[11] لولا حاجة الرِّفاق . لأشهدتُ عليكِ بالطّلاق[12] فقالوا ما هذه الجارية يا مُباركَ النّاصيَة ؟ قال هى امرأةٌ لى صَحِبتُها فى هذه الرّحلة . لتخفّفَ عنّى بعض الثّقلة . فأنضاها[13] الكلال[14] حتى لاتستطيعُ أن تمشى فنذهب . ولا أستطيع أن أترجّلَ لتركب . فتقدّمَ إليها فتىً ببرذَونةٍ[15] قد امتطاها[16] . وقال اركبى باْسم الله مجراها . فقال الشّيخ جزاكَ الله خيرَ الجزاء وجزاء الخير . ثم أقسم على القومِ[17] فعادوا وكأنّ على رؤوسهم الطير[18] . قال سهيلٌ وكنت قد عرفتُ حين أماط[19] اللّثام . أنهُ ميمون ابن خزام . فقلت إن الشيخ قد أتى الله بقلبٍ سليم . والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم . بيدَ أنّى[20] طَوَيْتُ عنهُ كشحى[21] لأعلم هل أصاب

(١) يمشون مسرعين . (٢) مثنى برد وهو نوع من الثياب .
(٣) ثار . (٤) أخذوا فى الطريق . (٥) مشوا معه بعد انصرافه .
(٦) التل . (٧) مسافة . (٨) مقدار رمية السهم . (٩) جمع حوراء وهى التى سواد عينها حالك وبياضها ساطع . (١٠) تضجر . (١١) يا لئيمة وهو يستعمل فى النداء خاصة مبنياً على الكسر . (١٢) يريد أن يريهم أنها زوجته .
(١٣) هزلها . (١٤) الإعياء .
(١٥) البرذون صنف من الخيل يتخذ للحمل غالباً . (١٦) ركبها . (١٧) أى أقسم عليهم أن يرجعوا . (١٨) أى ساكتين من الهيبة وأصله أن الغراب يقع على رأس البعير فيلتقط منه ما يؤذيه من الدبيب فلا يحرك البعير رأسه لئلا يطير الغراب عنه . (١٩) أى أزاح وذلك عندما مسح دموعه بفضلته بعد انقضاء الخطبة . (٢٠) أى غير أنى . (٢١) الكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع يقال طويت عنه كشحى أى أعرضت عنه .

قِدحى [١] . فتراجعتُ [٢] مع الرّاجعين . وتولَّيت [٣] عنـهُ حتى حين . فمكثت هُنَيهةً [٤] أترقَّبهُ . ثم انبعثت أتعقّبهُ [٥] . حتى انتهى إلى دسكرةٍ [٦] فى الطَّريق . بجانب العقيق [٧] . فنزل عن الحِجْر [٨] واعتزلَ إلى حَجْرة [٩] . وافترش أريكتهُ [١٠] فى ظل حُجْرة [١١] . فاعتسفتُ [١٢] إليهِ من بعض الجوانب . وكنت لهُ كالضاغب [١٣] . وإذا به قد احتجر [١٤] دستجةً [١٥] من الرّاح [١٦] . كزجاجةٍ فيها مِصباح . وأخذ يتعاطى الأقداح . ويُغـازل [١٧] تلك الخود [١٨] الرّداح [١٩] . فلما لَعِبَت بِعِطفيهِ الشَّمول [٢٠] . مال على أحد جانبيه وأنشأ يقول :

سقى الغَمامُ تُربَ ذاك القـبرِ ... فقد سقانى من لذيذ الخمر
ما لم أذُقْ نظيره فى العمرِ ... أفادنى فى اليوم قبل العصر
ما لستُ أستفيدهُ فى الشَّهرِ ... وإن أكُنْ ركبتُ إثمَ السّكرِ
فقد أفدتُ القومَ عنـد الذّكرِ ... مواعظاً تُلينُ صَلْدَ الصّخْرِ
فنلتُ من ذاك عظيم الأجرِ ... وصرتُ أرجو أن يقومَ عذرى
عنـد الإله فى مقام الحشرِ ... بأننى كفَّرتُ [٢١] قبل الوِزرِ [٢٢]

قال فلما فرغ من إنشادهِ المُريب . طلعتُ عليه طِلعةَ الذيب . وقلت السَّلام

---

(١) سهمى أى لأعلم هل أصاب ظنى فيه . (٢) أى تظاهرت بالرجوع .
(٣) أدبرت . (٤) زماناً يسيراً . (٥) أتبعه . (٦) مزرعة .
(٧) مسيل الماء . (٨) المهرة . (٩) ناحية . (١٠) فراشه ومتكأه .
(١١) غرفة . (١٢) مشيت فى غير طريق . (١٣) الذى يختبئ ليفزع من يمر به .
(١٤) وضع فى حجره . (١٥) زجاجة كبيرة . (١٦) الخمر .
(١٧) يحادث . (١٨) الجارية الناعمة . (١٩) الممتلئة .
(٢٠) الخمر المبردة بريح الشمال . (٢١) قدمت كفارة أى وفاء . (٢٢) الإثم .

على الخطيب . فأجفل إجفالَ الحَمَل [١] . وقال سَبَقَ السَّيفُ العَذَلَ [٢] . إذا كنت طُفَيلِيًّا [٣] . فلا تكن فُضُوليًّا [٤] . قلت فمَن التى تشرب الكاس من يديها . أحَليلةٌ [٥] بنيتَ بها أم خليلةٌ [٦] أنِستَ إليها . قال إن بينهما نُقطةً [٧] فلا تُحاسِب عليها . والآن قد غَلَبتنى سَوْرَةُ المُدام [٨] . وتلعثم [٩] لسانى عن الكلام . فاذهب الليلةَ بالسَّلام . وإذا التقينا غداً أبرزتُ لك المكنون . [١٠] ودرَأتُ [١١] عنك الظنون . قال فعلمتُ أنها من خُزَعْبلاتهِ [١٢] . لكننى أجريتهُ على عِلاّتهِ [١٣] فثنيتُ عنهُ عِنانى . وانثنيتُ [١٤] لشانى .

---

(١) الخروف . (٢) الملامة وهو مثل يضرب لمن لام بعد وقوع ما لام عليه . وأول من قاله ضبة بن إد المضرى وكان له ابنان يقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد . فنفرت إبل لضبة تحت الليل فأرسلهما فى طلبهما فوجدها سعد فردها ومضى سعيد يطلبها فى طريقه الأخرى . فلقيه الحرث ابن كعب وكان على سعيد بردان فسأله الحرث إياهما فأبى عليه فقتله وأخذهما . وكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سواداً قال أسعد أم سعيد . فذهب قوله مثلا . ومكث بعد ذلك ما شاء الله ثم حج فلما وافى عكاظ لقى بها الحرث بن كعب ورأى عليه بردى ابنه سعيد فعرفهما فقال له هل أنت مخبرى ما هذان البردان فقد أعجبنى منظرهما . قال لقيت غلاماً وهما عليه فسألته إياهما فأبى على فقتلته وأخذتهما . فقال أبسيفك هذا ؟ قال نعم . قال ألا ترينى إياه فإنى أظنه صارماً فأعطاه إياه . فلما أخذه منه هزه وقال إن الحديث ذو شجون فذهب قوله مثلا . ثم ضربه به فقتله فقيل له يا ضبة أتقتل فى الشهر الحرام فقال سبق السيف العذل .. فذهب قوله مثلا أيضاً . (٣) نسبة إلى طفيل بن زلال الكوفى .
(٤) نسبة إلى الفضول وهو دخول الإنسان فى ما لا يعنيه . (٥) زوجة . (٦) صديقة .
(٧) يريد النقطة التى على الخاء من الخليلة وليس بينها وبين الحليلة فرق غيرها فى الخط .
(٨) الخمر . وسورتها وثوبها إلى الرأس . (٩) احتبس . (١٠) المخبأ .
(١١) دفعت . (١٢) خرافاته وأباطيله . (١٣) تغاضيت عنه مع عيبه . (١٤) رجعت .

المقامة اليمامية

أخبرنا سهيلُ بنُ عبَّادٍ قال : تقلَّدتُ السَّفَرَ طوقَ الحمامة[١] مُنْذُ اعتجرتُ بالعِمامة[٢] . وكنت أهوَى ديارَ العرب العرْباء . لما فيها من الشعراء والُخطباء . والفُصحاء والأُدباء . والبُلغاء والنُّجباء . فكنتُ أُزجى[٣] إليها الرِّكاب . وأتضمَّخ[٤] منها بالعَجاج[٥] والعُكاب[٦] . وأتعطَّرُ بالعَرار[٧] والبَشام[٨] . وأتفكَّهُ[٩] بالعرْفَج[١٠] والثَّغام[١١] . وأطرَبُ للنَّصْب[١٢] والُحداء . وأبتهج بالثُّغاء[١٣] والرُّغاء[١٤] . حتى إذا كنت يوماً بحَجْرِ اليَمامة[١٥] . رأيتُ كتيبةً قد أطبقت كالغمامة . فحثحثتُ[١٦] الجواد . حتى حصحص[١٧] لى ذلك السَّواد[١٨] ، وإذا فتًى لاغط[١٩] ، وشيخٌ ضاغط[٢٠] ، والنَّاس حولهما يتفرَّجون ، ولا يُفرِجون[٢١] . فانتصبتُ مع الوُقُوف ، ونظرت من خِلال الصُّفُوف وإذا الشيخ يقول ويلَ أُمّك يا أَخبَثَ من الشَّيْصَبان[٢٢] وأَروَغَ من الثُّعلُبان[٢٣] . إلى مَ تتمادَى فى العُقُوق[٢٤] وتتغاضى عن الُحقُوق . أَما تذكر

---

(١) مثل يضرب فى الملازمة للشىء كملازمة طوق الحمامة لعنقها . (٢) أى لففتها على رأسى . (٣) أسوق . (٤) أتلطخ . (٥) الغبار . (٦) الدخان (٧) نبات طيب الرائحة يقولون له بهار البر . (٨) شجر طيب الرائحة يستاك به . (٩) اتخذ فاكهة . (١٠) شجر ينبت فى السهول . (١١) نبات يكون فى الجبال . (١٢) غناء للعرب أرق من الحداء . وهو لحن لهم يعرف عند أهل الموسيقى بالسلملك . (١٣) صوت الغنم والمعزى . (١٤) صوت الجمال . (١٥) اليمامة قسم من أقسام بلاد العرب . والحجر مدينة بها . (١٦) أعجلت . (١٧) ظهر . (١٨) العدد الكثير . (١٩) من اللغط وهو الضجيج والصياح . (٢٠) يقال ضغطه إذا زحمه إلى حائط ونحوه . (٢١) أى ولا يفتحون فرجة وهى الفسحة بين الشيئين . (٢٢) الشيطان . وقيل اسم قبيلة من الجان . (٢٣) الثعلب الذكر . (٢٤) سوء المكافأة عن التربية .

تثقيفى أَوَدَكَ[١] وتلقيفى رَشَدَكَ[٢] ، وهل نسيتَ ما تجشَّمتُ[٣] من جَلَلِكَ[٤] . فى مُداواة عِلَلك ، وكم أنفقت عليك فى المدارس ، والمطاعم والملابس . فبأىّ آلاء[٥] ربك تتمارَى[٦] ، ولو كنتَ أبْلَهَ من الحُبارَى[٧] . هذا والغلامُ يتظلَّم ، ويتململُ ويتألَّم ، وهو أَحْيَرُ من ضَبّ[٨] ، وأَنفرُ من بعيرٍ أَزَبّ[٩] فلما رأى القوم ما رأَوا من تَمَلْمُلِهِ ، واصطخابه[١٠] وتبلبُله[١١] . قالوا ليس شكوَى. بلا بلوَى . فأَبِنْ أيُّها الشّيخ عُذرَكَ ، وضَعْ عنك وِزْرَكَ[١٢] . الذى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ[١٣] . فأَرِنَ[١٤] كما يأرَنُ المهر . وقال قد تجنَّى[١٥] علىَّ هذا الغمر[١٦] ، والله يعلم أن ليس لى ذنبٌ إلّا ذنبُ صُحْر[١٧] . إن هذا الفتى عربىُّ الدار ، لكنه رومىُّ النِّجار[١٨] ، وقد بذلتُ فيه من الدّينار والدِّرهم ، ما لا يبذله خالدُ ابن الأيْهَم[١٩] ، وأفرغتُ جُهدى فى تهذيب لسانه . وتعديل ميزانه ، فلم يزَلْ

---

(١) تقويمى اعوجاجك كناية عن تهذيبه له . (٢) أى مناولتى لك الرشاد بالسرعة . (٣) تكلفت . (٤) أى من أجلك . (٥) نعم . (٦) قوله تمارى أى تشك . والعبارة آية من القرآن يراد فيها بالرب ذات الله سبحانه . وهو يحتمل هنا أن يبقى على حكمه بناء على أنه تعالى قد أنعم عليه بإيقاعه فى يد من يهذبه ويحسن تربيته . ويحتمل أن يستخدم للشيخ كما يقال رب المال ورب البيت ونحو ذلك . (٧) البله الغباوة والغفلة . والحبارى طائر يضرب به المثل فى ذلك لأن أنثاه إذا فارقت بيضها تذهل عنه فتحضن بيض غيرها . (٨) مثل يضرب فى الحيرة لأن الضب إذا فارق جحره لا يهتدى إليه . (٩) الأزب الكثير الشعر . وذلك أن البعير يرى طول الشعر على عينيه فيظنه شخصاً فينفر منه ولا يتخلص من لحاقه به فلا يزال نافراً . وهو مثل أيضاً . (١٠) ضجيجه . (١١) اضطرابه . (١٢) حملك الثقيل . (١٣) أى أثقله حتى سمع نقيضه وهو صوت مفاصل العظام عند الضغط . (١٤) مرح نشاطاً . (١٥) ادعى على بذنب لم أفعله . (١٦) الغبى الجاهل . (١٧) هى بنت لقمان بن عاد كان قد خرج أبوها لقمان وأخوها لقيم مغيرين فأصابا إبلا كثيرة . فسبق لقيم إلى منزله فعمدت صحر إلى جزور مما قدم به لقيم فنحرتها وصنعت منها طعاماً لأبيها . وكان لقمان قد حسد لقيما لتبريزه عليه فلما قدمت له الطعام وعلم أنهَ من غنيمة لقيم لطمها لطمة قضت عليها . فصارت مثلا لمن يعاقب بغير ذنب . (١٨) الأصل . (١٩) هو خالد بن جبلة بن الأيهم الغسانى من آل جفنة ملوك الشام . كان قد أسلم فى خلافة الإمام عمر بن

يَكسِرُ شكيمةَ[1] اللِّجام . ويَنزِع[2] إلى ألفاظ الأعجام[3] . فيدعو المعلِّم . بالموألِّم . ويُسَمِّى القلب . بالكلب . والحيطان . بالخيطان[4] . ويُعرِّف المُضاف[5] ويُؤَخِّر الموصوفات عن الأوصاف[6] . وهذا مما تأباهُ[7] السّجيّةُ[8] الأدبيّة . وتَستَكُّ[9] منه المسامع العربيَّة . وشهد الله أنى أُريدُ تهذيبَهُ . لا تعذيبَهُ . وأَرغَبُ فى تثقيفِه . لا تعنيفِه[10] . لكنَّنى أجتهدُ فى تسديده[11] فيعثُر . وأروم تشديدهُ فينفُر . وإن كنتم فى ريبٍ من ذٰلكُم[12] فاختبِروه ، وإلّا فأنا أمتحِنُهُ لِتعتبروه . قالوا : لا جَرَمَ أَنَّ المولى . هو الأَولَى . فأمسك هُنيهة[13] عن الكلام

ثم قال : قُل يا غلام :

أنا الخزامىُّ الرّقيقُ الكَلِمِ مَسحتُ ركنَ المَسجدِ المحرَّمِ
ولى غُلامٌ من نِتاج العَجَمِ يشرِقُ فى فُؤادِهِ وفى الفَمِ

الخطاب وأقام معه بالمدينة حتى حضر موسم الحج فخرج معه إلى مكة . وبينما خالد يطوف بالبيت محرماً متزراً وطىء رجل طرف إزاره فانحل وانهتك ستره فغضب ولطم الرجل . فشكاه الرجل إلى الإمام عمر فقال الإمام يا خالد إما أن تسترهب الرجل أو يلطمك فإن الملك والسوقة فى الحق سواء . فغضب وخرج ليلا إلى الشام وارتد عن إسلامه . ولما بلغ الإمام خروجه كتب إلى عامله أبى عبيدة بن الجراح أن يستتيبه فإن تاب وإلا فليضرب عنقه . فلما علم خالد بذلك فر هارباً حتى دخل أرض الروم وأتى قيصر فأخبره بأمره فسر به وأقطعه أعمالا فى بلاده وطالت يده فى تلك البلاد فاتخذ كثيراً من العبيد والجوارى وبذخ فى عيشه وكان كريماً متلافاً . وهو آخر الملوك الغسانية بالشام .

(١) الحديدة المعترضة فى فم الفرس . (٢) يميل . (٣) يشمل كل من كان من غير العرب . (٤) أى يبدل العين بالهمزة والقاف بالكاف والحاء بالخاء لأن لسانه لا يطوع على تلك الأحرف إذ ليست فى لغته التى نشأ فيها فيستبدلها بما يقاربها من أحرف لغته . (٥) أى المضاف المعنوى وهو المفهوم عند الإطلاق فيقول جاء الغلام زيد . (٦) فيقول عندى كريم رجل جرياً فيهما على اصطلاح لغته .

(٧) تكرهه . (٨) الطبيعة . (٩) تثقل وتضيق . (١٠) تعييره ولومه .

(١١) توفيقه للصواب . (١٢) أصله ذلك فأدخل عليه الميم الدالة على خطاب الجمع .

(١٣) حيناً يسيراً .

أُوجَدَه بارى الورَى من عَدَمِ وحاطَه بالقدَر المُصَمَّمِ[1]
فلم يزَلْ فى حَرَسٍ مُتَمَّمِ

فتعزّز الفتى وتمنَّع . وهو يروغ كالفارس الأهْنَع[2] . فما زال به القوم حتى أجابَ فترَحْرَح[3] . وأنشد بصوت صَمَحْمَح[4] :

أنا الخزامىُّ الركيك الكَلِم مسختُ ركنَ المسجِدِ المُخرَّمِ
ولى غلامٌ من نِتاج الأجَمِ[5] يُشرِكُ[6] فى فؤاده وفى الفمِ
أَوجَدَهُ بارى الورى من أَدَمِ[7] وخاطهُ بالكَدَر المسمَّمِ[8]
فلم يزَلْ فى خَرَسٍ مُتَمَّمِ

قال فلما رأى القوم سُقم هذه الألفاظ . وما أَدّتْ إليه من المعانى الفِظاظ[9] . تعوّذوا بالله من سوء تلك اللُّثغة . وقالوا ما هذا الغلامُ الذى لا يُشترَى بفَشْغة[10] فتبرَّم الشيخ وتأفَّف[11] ، وتأوَّه وتأسَّف ، وقال قد علمتم أَن عِثار اللسان شرٌّ من عِثار القدَم ، ولكن ماذا يَنفَع الندَم ، وإننى طالما حدَّثتُ نفسى بعتاقِه ، وهممتُ بانعتاقى من وَثاقِهِ ، ولو وجدت لى عنهُ غِنًى ، أو كان فى يدى سَعَةٌ من الغِنَى . لبعتهُ بنصف القيمة ، واشتريت غيره بضعف[12] السِّيمة[13] ولكن قد انقطع السَّلَى[14] . فلا حَول ولا[15] . فأَجهَش[16] الفتى عن كَثَب[17] . وأخذ رُقعةً وكَتَب :

---

(١) من معنى الصميم أى الخالص . (٢) المائل فى سرجه يميناً وشمالا .

(٣) فسح بين يديه . (٤) شديد . (٥) الغابات . وعلى ذلك فيكون من الوحوش . (٦) يكفر . (٧) جلد . (٨) أبدل الصاد بالسين لأنها ليست فى لغتهم فإذا لفظوا بها جعلوها سيناً . (٩) الغليظة . (١٠) هى القطنة التى تكون فى جوف القصبة . (١١) تضجر .

(١٢) من معنى المضاعفة . (١٣) من معنى المساومة . (١٤) السلى جلدة رقيقة يكون فيها المولود من المواشى إذا انقطعت فى البطن هلكت الأم والولد . وهو مثل يضرب فى ذهاب الحيلة . (١٥) أى ولا قوة إلا بالله . (١٦) تهيأ للبكاء . (١٧) قرب .

هَبُوا(١) خَطَأَ اللّسان علىَّ عيباً ... أما لى غيرَه شىءٌ يُصيبُ

أنا ابنُ اقعُدْ وقمْ(٢) لا فى النَّدامَى ... أُعَدُّ ولا سميرٌ(٣) أو خطيبُ

أُديرُ من المعانى كلَّ كأسٍ ... تطيبُ فَخَلِّ لفظى لا يطيبُ

إذا كان الجميلُ سليمَ حُسْنٍ ... فليسَ يضرُّه ثوبٌ مَعِيبُ

فلما وقف القوم على شعره . ورأوا انحطاط سِعره . قالوا إن لم يُحسِن الكَرَّ . فالحَلبَ والصَّرَّ(٤) ، ونقَدوا الشّيخ(٥) بعضَ المال . وقالوا للفتى دونَكَ الجِمال . فسُرَّ كلاهما وارتضى ، ووَدَّعهم الشيخ ومضى . قال سهيلٌ وكنت قد عرفتُ ذَينِكَ الصاحبَين(٦) . اللّذَين سَيئاتهما تغلِب الكاتبَين(٧) . فقفَوتُ الشّيخ فى تلك البِقاع ، وقُلتُ يافرَزْدَقُ أين وقّاع(٨) قال انزِل بنا هُنا ، والليلُ

(١) احسبوا . (٢) يقال للعبد ابن أقعد وقم وللأمة ابنة اقعدى وقومى والمراد بهما الاستخدام . وهى إضافة على تقدير قول محذوف أى قول اقعد وقم أو على إرادة اللفظ مأخوذاً مأخذ الاسم كما فى قولهم زعموا مطية الكذب أى هذه الكلمة مركب الكذب . (٣) أى ولا أنا سمير .

(٤) مأخوذ من قول عنترة العبسى . وكان قومه قد أغاروا على بنى طى فاستاقوا إبلا كثيرة . ولما أرادوا القسمة قالوا لا نعطيك نصيباً منها مثل أنصبائنا لأنك عبد . ثم إن بنى طى أغاروا عليهم فاستنقذوا الإبل . فقال له أبوه شداد كر ياعنترة فقال لا يحسن العبد الكر إلا الحلب والصر . فذهبت مثلا . والصر ربط ضرع الناقة بخيط لئلا يرضع الفصيل . وإلا بمعنى لكن . أى لا يحسن الكر لكن يحسن الحلب والصر . ومراد القوم أنه لم يحسن الكلام فهو يحسن الخدمة .

(٥) قبضوه . (٦) يريد أنه عرف أنهما الشيخ الخزامى وغلامه رجب الذى سيصرح باسمه .

(٧) أى تغلب الملكين اللذين كل واحد منهما يكتب سيئات كل منهما فلا يقدران على إحصائها لكثرتها .

(٨) الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمى . وإنما لقب بالفرزدق وهو قطعة العجين لأنه كان غليظاً ضخم الوجه . وكان الفرزدق فاسقاً مجاهراً بالفحشاء . وكان له أخ يقال له الأخطل كان زاهداً عفيفاً . قيل دخل الفرزدق مجلساً فيه دغفل النسابة فنسبه دغفل حتى بلغ أباه فقال وولد غالب رجلين أحدهما شاعر سفيه والآخر ناسك فأيهما أنت . قال أنا الشاعر السفيه . وقد أصبت فى نسبى وكل أمرى فأخبرنى متى أموت . قال أما ذلك فليس عندى . وكان للفرزدق غلام يقال له وقاع كان يرسله فى قبائحه . وسهيل يشبه الشيخ بالفرزدق وغلامه بوقاع لأنه يستخدمه فى حوائجه السيئة .

يوارِى(١) حَضَناً(٢) فنزَلنا إلى أنِ استوهَنَ الليل(٣) . وإذا رَجبٌ على شَيْظَمةٍ(٤) من جياد الخيل . تندفق بهِ كعارض السيل . وهو بين ذلك يُنادى . أَللَّيلَ وأَهضامَ الوادى(٥) . واستمرَّ يعدو(٦) الهَمْلَجة(٧) . على مُهرته السَّمَلَّجة(٨) فما أدركناه إلاوقد اُشمَخَرَّ(٩) الضُّحى ، وكَلَّت الخيل من الوَحَى(١٠) فنزلنا جميعاً عن السُّروج . فى بعض تلك المُروج . حتى إذا انجابَ(١١) بُهْرُ الأنفاس(١٢) . وثابَ أَشَرُ(١٣) الأفراس . ثار رجبٌ كالرِّئبال(١٤) . وقال لا تَقسِط(١٥) على أبى حِبال(١٦) . وتركَ القومَ يكسرون عليه أَرعاظَ(١٧) النِّبال .

المقامة الرملية

قالَ سهيلُ بنُ عبَّادٍ : حللتُ بالرّملة(١٨) لوَطَر(١٩) أَقضيهِ ودَينٍ أَقتَضيهِ(٢٠) . فأَقمتُ بها شهراً . وكنتُ أَحسَبُهُ دهراً(٢١) . حتى إذا بلغتُ اللُّدُنَّةَ(٢٢) .

(١) يستر . (٢) هو جبل عظيم فى نجد . والعبارة مثل معناه أن الليل يستر ما يغشاه ولو كان عظيما مثل هذا الجبل . (٣) دخل فى الوهن وهو نحو نصف الليل .

(٤) أى فرس فتية جسيمة . (٥) الأهضام جمع هضم وهو ما اطمأن من الأرض . أى احذر الليل ومهاوى الوادى . وهو مثل يضرب فى التحذير من أمرين كلاهما مخوف . والمراد بهما عنده أصحاب الفرس الذين يخاف أن يلحقوا به ولصوص البادية الذين يخاف أن يصادفوه .

(٦) يركض . (٧) هى أن يقارب الفرس بين خطواته مع الإسراع . (٨) السريعة الخفيفة . (٩) ارتفع . (١٠) السرعة . (١١) انشكف وزال . (١٢) أى ضيقها .

(١٣) نشاط . (١٤) الأسد . (١٥) من القسط وهو الجور . (١٦) هو طليحة بن خويلد الأسدى التقى ولده حبال بثابت ابن الأقرم وعكاشة بن محصن فقتلاه . فجاء الخبر إلى أبيه طليحة فتبعهما وقتلهما جميعاً . فلما رأى قومه صنيعه وطلبه بثأر ابنه قالوا لا تقسط على أبى حبال . فذهبت مثلا يضرب لمن يحذر جانبه ويخشى انتقامه . (١٧) الأرعاظ جمع رعظ وهو مدخل النصل فى السهم كان يكسره الرجل من العرب إذا اغتاظ لأنه كان يخط فى الأرض بسهامه فيكسر أرعاظها . وهو مثل يضرب فى شدة الغيظ . (١٨) البلدة المعروفة . (١٩) حاجة .

(٢٠) أستوفيه . (٢١) أى كنت أستطيل مدته لشدة الضجر . (٢٢) الحاجة .

خرجتُ تحت الدُّجُنَّة(١) . وكان الشهر قد وقع فى الأنين(٢) فاعتسفتُ(٣) بين الشكِّ واليقين . أتجانف(٤) تارةً ذاتَ الشِّمال وأخرى ذاتَ اليمين . وما زلتُ أخبِطُ(٥) الظَّلماء . حتى أقمرتِ السماء(٦) . فتبيَّنتُ وجهَ الهُدى . وإذا أنا أمشى على مثل المُدى(٧) من حِرار(٨) تلك الكُدى(٩) . فوقفتُ كالحائر اللَّهِف . لأنظُرَ من أينَ تُؤكَلُ الكَتِف(١٠) . وإذا رَكْبٌ(١١) يضربون أكْبادَ الإبل(١٢) . وفى صدرهم(١٣) شيخٌ يُنْشِدُ بصوتٍ زَجِل(١٤) :

يا مَن يَرى ما لا يُرى ولا يُرى(١٥) ... ويَعلمُ السِّرَّ وأخفى فى الوَرى(١٦)
دعوتُكَ اللهمَّ إذ طالَ السُّرى(١٧) ... ومالتِ الأعناقُ من خمر الكَرى
يَسِّرْ لنا رِزقاً من العرشِ جَرى ... أو فاهدِنا لبابِ رِزْقٍ يُعترى(١٨)
نَعْدُ(١٩) إليهِ مِثلَ عَدْوِ الشَّنْفَرَى(٢٠)

---

(١) الظامة . (٢) يكنون بذلك عن دخوله فى العشرين وما يليها لما فيها من الغنة كالأنين . ومراده أن القمر كان يتأخر طلوعه . (٣) مشيت على غير طريق . (٤) أميل . (٥) أمشى على غير هدى . (٦) أى طلع فيها القمر . (٧) السكاكين . أى على حجارة محددة . (٨) جمع حرة وهى أرض فيها حجارة سود نخرة . (٩) الأراضى الغليظة .

(١٠) أى لأنظر من أين ينبغى أن يسار . وهو مثل فى استبانة الأمر المبهم يقال إن أكل الكتف مشكل عند العرب . قال بعضهم تؤكل الكتف من أسفلها و يشق أكلها من أعلاها . و يقولون إن المرقة تجرى بين اللحم والعظم منها فإن أخذتها من أعلى تجرى عليك المرقة فتنصب . و إن أخذتها من أسفلها تنقشر عن عظمها وتبقى المرقة مكانها . ولذلك يقولون عن الرجل الداهية إنه يعلم من أين تؤكل الكتف . (١١) جمع راكب . (١٢) أى يسوقونها سوقاً عنيفاً . (١٣) أى فى مقدمتهم . (١٤) من قولهم زجل إذا رفع صوته وطرب فيه . (١٥) معطوف على يرى الأولى أى يا من يرى ولا يراه أحد . (١٦) الخلق . (١٧) المشى فى الليل . (١٨) يقصد (١٩) نركض . (٢٠) رجل من بنى الأزد قيل له الشنفرى لعظم شفتيه . وهو صاحب لامية العرب التى يقول فى مطلعها :

أميلوا بنى أمى صدور مطيكم ... فإنى إلى قوم سواكم لأميل

وهو أحد محاضير العرب الموصوفين بسرعة الركض . وهم خمسة منهم الشنفرى هذا وسليك ابن السلكة وهو أشدهم عدواً و عمرو بن براق وأسير بن جابر وتأبط شراً .

قال : فلما سمعتُ ذلك الدُّعاء خَشِيتُ أن يُستَجاب . وأكون أنا ذلك الباب(١) . فوقعتُ فى حَيصَ بَيصَ(٢) . إذ لم أجِد لى من مَحِيص(٣) . ولم يَكُنْ إلاّ كنغبة طائر(٤) . حتى حمَلَ علىَّ كالثّائر(٥) . وقال قد أنجح(٦) ربك الطَّلَب . فخلِّ عن السَّلَب(٧) . حتى إذا كادَ يُدْرِكُنى بسنانهِ . أخذَتْ جاريةٌ بعِنانهِ(٨) . وقالت بتربة خزام(٩) دَعْهُ يمضى لشانهِ . فلما آنستُ ريّا(١٠) الخزام تفرَّستُ فإذا ميمونٌ وليلى والغُلام . فاطمأنَّ(١١) هنالك قلبى . وانفثأت(١٢) لوعةُ كَرْبى . ونزلنا جميعاً على تلك السِّلام(١٣) . وتطارحنا السَّلامَ بالسُّلام(١٤) . وقضينا ثُميلة(١٥) ليلنا البارح . إلى أن صَدَحَ الصّادح(١٦) . وسكت النّابح(١٧) . فقال إنّا نُريدُ الرَّملة . فهل أنتَ فى الجُملة . قلت إن العَودَ مع مثلك أحمَد . ولَوْ إلى بُرقة ثَهْمَد(١٨) . وقمنا نسيرُ الوَحى(١٩) . فدخلناها رائعةَ الضُّحى(٢٠) . وإذا أنا قد كنتُ أمشى مِشيةَ الرَّحى(٢١) . ولما ألقينا العصا(٢٢) .

---

(١) أى خفت أن يستجيب الله دعاءهم و يهديهم إلى باب رزق وأكون أنا ذلك الباب الذى يهتدون إليه فيسلبون منى ما معى . (٢) أى فى ارتباك لا مخرج لى منه وهما اسمان مركبان مبنيان مثل بيت بيت . (٣) مهرب . (٤) أى مهلة ما يشرب الطائر .

(٥) صاحب الثأر الذى يقوم لأخذه . (٦) يسر وقضى . (٧) أى أترك ما معك من الأمتعة . (٨) سير اللجام . (٩) أى أتوسل إليك بتربة أبيك خزام

(١٠) رائحة طيبة . (١١) سكن . (١٢) يقال انفثأت القدر أى انطفأت رغوتها . (١٣) الحجارة . (١٤) عظام الأصابع أراد بها الأيدى مجازاً .

(١٥) بقية . (١٦) أى ترنم الطائر . (١٧) أى الكلب . كنى بذلك عن طلوع الصبح لأن الطائر يترنم عند الصبح والكلب يمسك عن النباح . (١٨) مثل أول من قاله خداش بن حابس كان قد خطب جارية يقال لها الرباب فرده أبوها . فتركها زماناً ثم أقبل حتى انتهى إلى حلتهم وتغنى بأبيات يتشوق بها إليها . فسمعته الرباب وأرسلت إليه أن يأتى خاطباً فلا يرد . فأقبل خداش إليهم وقال العود أحمد فذهبت مثلا . و برقة ثهمد مكان فى بلاد العرب . يقول إن العود إذا كان مع مثلك فهو محمود ولو كان إلى مكان بعيد مثل برقة ثهمد . (١٩) سريعاً .

(٢٠) أى بياض الضحى . وهى منصوبة على الظرفية . (٢١) أى فوجدت أننى كنت أمشى فى الليل كما تمشى الرحى . أى أدور وأنا فى مكانى . وذلك لأنهم وصلوا فى مدة يسيرة . (٢٢) كناية عن وصول المسافر .

أخذ الشيخُ يتجهّز[1] لطَرْق الحصى[2] . ثم قام بي يَتعقّدُ المعاهد[3] . ويتعهّدُ المَشاهد . حتى انتهينا إلى مكتبة مكتظّةٍ بالطَّلبة[4] . فتخللنا المَقام . وقلنا سَلاماً قالوا سَلام . وكان بينهم شيخٌ قد لَبِسَ العمائمَ الثّلاث[5] . فأشارَ إلى بعض أولئك الأحداث[6] . وقال هل تذكر الأبيات العواطِل[7] . أم ذَهبَتْ عنك بالباطل . فأنشد ولم يُماطِل .

أَلحمدُ للهِ الصّمَدِ حالَ السُّرُورِ والكَمَد
أَللهُ لا إلٰهَ إلّا أللهُ مولاكَ الأَحَد
لا أمَّ للهِ ولا والِدَ لا ولا وَلَد
أوّلُ كُلِّ أوّلٍ أصلُ الأُصولِ والعُمَد
الواسعُ الآلاء[8] وآلُ آراء علماً والمَدَد
الحَوْلُ[9] والطَّوْلُ[10] لهُ لا دِرْعَ إلّا ما سَرَد[11]
كلٌّ سِواهُ هالكٌ[12] لا عَدَدٌ[13] ولا عُدَد[14]
صاحِ[15] أدعُ مولاكَ لما أوعَدَ واسألْ ما وَعَد[16]
واصدَع[17] رداءَ اللّهوِ وآل مَكرِ ودع[18] سُوءَ اللَّدَد[19]

(١) يتأهب . (٢) من أعمال السحرة أى أخذ يتهيأ لأعمال مكره .
(٣) المواضع المعهودة لاجتماع الناس . (٤) ممتلئة بالتلاميذ . (٥) يراد بالعمائم الثلاث الشعر الأسود ثم الأشمط ثم الأبيض كناية عن بلوغ غاية السن . (٦) الغلمان .
(٧) التى لا نقط فيها . (٨) النعم . (٩) القوة . (١٠) القدرة .
(١١) نسج . أى لا وقاية إلا وقايته . (١٢) مائت أو ذاهب تلفاً . (١٣) جيش .
(١٤) أدوات حرب أى لا شىء من ذلك يمنع الموت . (١٥) أى يا صاحب .
(١٦) يقال أوعد فى الشر ووعد فى الخير . (١٧) شق . (١٨) اترك .
(١٩) المخاصمة .

وأسلُ المُدامَ[1] والمَها[2] وآرمِ المِراءَ[3] والحَسَد
وأمحُ رُسُوماً ما لها حَدٌّ ولا لها عَدَد
وسامِحِ المرْءَ سَها لمّا رماكَ[5] أم عَمَد[6]
وأردَعْ هَواكَ كارهاً ما وَدَّ وآعكسْ ما طَرَد[7]
وأعلَمْ وعَلِّمْ وأطَّرِح[8] أحكامَ عادٍ وأُدَد[9]
ودُرْ مَعَ الدّهرِ كما دارَ ولَوْ طالَ الأمَد
وسِرْ مَعَ الرَّوْدِ[10] ودَعْ حَرَّ السَّمومِ[11] والوَمَد[12]
وأعدِدْ دواءَ الدّاءِ للدهرِ وإكحالَ الرَّمَد
وأسلُ رواءَ ماطرٍ لماطلٍ ولو رَعَد[13]
للمرءِ سهمٌ مُرْسَلٌ وهماً وكم سهمٍ صَرَد[14]
وكم وكم حُلوٍ لهُ مرَّ وكم وارٍ صَلَد[15]

(١) الخمر . (٢) بقر الوحش . يكنى بها عن النساء الحسان العيون . (٣) الجدال .
(٤) أى فعل بغير قصد . (٥) أى أصابك بالسوء . (٦) قصد . (٧) نقيض عكس . أى كن مخالفاً لهوى نفسك . (٨) افتعل من الطرح . (٩) عاد أحد آباء العرب البائدة وأدد أبو قبيلة من اليمن وكلاهما من جاهلية العرب . أى اطرح أحكام الجاهلية المتعسفة . وهى كما يحكى عن عمرو بن فخذ العبسى أنه كان يقول لبنى عمه من كلمكم فاشتموه . ومن شتمكم فاضربوه . ومن ضربكم فاقتلوه . ومن قتلكم كلفته إما أن يحييكم ويعطى الدية ، وإما أن يعطى الدية وأقتله . وأمثال ذلك كثيرة عندهم فلا نطيل الكلام بذكرها . (١٠) الريح اللينة .
(١١) الريح الحارة نهاراً . (١٢) شدة الحر ليلا . يأمره بالملاينة والملاطفة وترك التعسف والدخول فى المسالك العسرة . (١٣) أى لا تثق بكلام الماطل الذى لا يفى بوعده ولا ترج أن تروى بمطر من سحابه ولو سمعت له رعداً . ولكن ينبغى أن تسلو ما ترجوه منه إذ لا مطمع فيه .
(١٤) أخطأ . أى أن الإنسان يرسل سهام ظنه كثيراً ولكن كثير منها يخطئ ولا يصيب .
(١٥) يقال ورى الزند إذا أخرج ناراً فإن لم يخرج يقال صلد . يقول إن الحلو من الناس يصير مراً فى أحيان كثيرة . والمعهودة إفادته يذهب أحياناً كثيرة بلا فائدة . وذلك على خلاف ظن الإنسان فينبغى له أن لا يثق بظنه .

هَولُ الحِمامِ[١] طالعٌ ... مَطلَعَ[٢] رَوعٍ[٣] كالأَسَد

كأسٌ لكُلٍّ دَوْرُها ... والكلُّ للكأسِ وَرَد

وكلُّ عُمرٍ كالكَلا[٤] ... والدَّهرُ للكلِّ حَصَد

وكلُّ رسمٍ[٥] دارسٌ[٦] ... وماهدٍ[٧] وما مَهَد

أَللهُ أهلَ اللهِ را ... عٍ كلَّ عَدْلٍ وأَوَد

كلٌّ هواهُ عاملٌ ... واللهُ للكُلِّ رَصَد[٨]

فقال أحسنتَ يا بُجَيْر[٩]. يا سُلافة[١٠] الدَّير. ثم نادى يا عِكْرِمة[١١] هاتِ أبياتَكَ المُعجَمة[١٢]. فبرَزَ غُلامٌ أنقى من العاج[١٣]. وأجملُ من نصر بن حَجَّاج[١٤]. وأنشد:

بِشَجيٍّ[١٥] يبيتُ في شَجَنٍ[١٦] ... فِتَنٌ[١٧] يَنتَشِبْنَ[١٨] في فِتَنِ[١٩]

شَيِّق[٢٠] تَيِّقٌ[٢١] تُجُنِّبَ[٢٢] في[٢٣] ... نَفَقٍ[٢٤] ضَيِّقٍ بَقِي فَفَنِي[٢٥]

---

(١) الموت . (٢) طلوع . (٣) مخافة . (٤) الحشيش .

(٥) بقية الدار . (٦) يقال درس الرسم أى انمحى . (٧) أى وكل ماهد على حد قوله :

أكل امرئ تحسبين امرأ ... ونار تأجج فى الليل نارا

(٨) رقيب . أى يا أهل الله إن الله يراقب كل استقامة وعوج . (٩) اسم رجل .

(١٠) خمرة . (١١) اسم رجل . (١٢) المنقطة . (١٣) عظم الفيل تصنع منه الأوانى . (١٤) هو رجل من أهل المدينة يقال له نصر بن حجاج بن علاط السلمى كان بارعاً فى الجمال وله قصة مع الفارعة أم الحجاج بن يوسف الثقفى حين قالت :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم سبيل إلى نصر بن حجاج

(١٥) صفة من قولهم شجى به أى اشتغل . وهو خبر مقدم . (١٦) حزن .

(١٧) مبتدأ مؤخر . (١٨) من انتشاب السهم . (١٩) أى داخلة فى فتن أخرى .

(٢٠) صفة من الشوق . (٢١) من التوق وهو ميل النفس . (٢٢) مجهول تجنب .

(٢٣) متعلقة بقوله بقى فى أواخر البيت . (٢٤) سرب فى الأرض . كناية عن الحبس والضيق .

(٢٥) أى أن بقاءه فى هذا الضيق كان سبباً لفنائه .

شَغَفٌ[١] شَفَّني[٢] بذى[٣] ثِقةٍ[٤] ... نَجِبٍ[٥] شَنَّ[٦] جيشَ ذى يَزَنِ[٧]

شيبةٌ[٨] فى شبيبةٍ خُضِبَتْ[٩] ... بشقيقٍ[١٠] غَضٍّ[١١] يَنِضُّ[١٢] جَنِي[١٣]

بينَ جنبيَّ شُقَّةٌ[١٤] خَشُنَتْ ... فى[١٥] قضيض[١٦] تُبيِّتُني خَشِنِ[١٧]

قِضْتُ[١٨] جَفني بيقظةٍ ثَبَتَتْ[١٩] ... غِبَّ[٢٠] بينٍ[٢١] فَبِتُّ فى غَبَنِ[٢٢]

بي[٢٣] شقيقٌ[٢٤] يغيبُ غيبةَ ذى ... ضَغَنٍ[٢٥] بَيِّنٍ[٢٦] تَجَنَّبَني[٢٧]

شيخُ فنٍّ فَتِيٌّ شِنْشِنَةٍ[٢٨] ... شَبَّ فى بيتِ نُخبةٍ فَبُنِي[٢٩]

يَنتَقي[٣٠] زَينَ جَنَّةٍ جُنِيَتْ ... يَتَّقى شَينَ ضِنَّةٍ[٣١] بغنى

غَيثُ[٣٢] فيضٍ يَفِي فيَنبُتُ فى ... قُنَنٍ[٣٣] بغتةً بذى[٣٤] فَنَنِ[٣٥]

---

(١) شدة الحب . (٢) أنحلنى . (٣) الباء متعلقة بالشغف .

(٤) أى بحبيب يوثق به . (٥) كريم . (٦) شن الغارة على القوم أى فرقها عليهم من كل جهة . (٧) ملك من ملوك اليمن . ويزن اسم واد كان يحميه فقيل له ذو يزن . يقول إن هذا الحبيب الذى أنحلنى حبه أغار على بهموم وأحزان من هجره كأنها جيش هذا الملك . (٨) أى لى شيبة . (٩) صفة لشيبة . (١٠) يريد النبات الأحمر الزهر . كنى به عن حمرة الدمع التى صبغت شيبته . (١١) طرى . (١٢) يرشح .

(١٣) نعت آخر للشقيق . يقال ثمر جنى أى قريب العهد بالقطف . (١٤) مسافة . كنى بها عن أحشائه . (١٥) متعلقة بقوله تبيتنى . (١٦) مكان غليظ .

(١٧) نعت قضيض . (١٨) من المقايضة بمعنى المبادلة . (١٩) أى دامت .

(٢٠) بعد . (٢١) فراق . (٢٢) يريد أنه سلب النوم من عينيه وأعطاهما اليقظة بدلا منه فكان مغبوناً فى هذه المقايضة . (٢٣) أى يفدى بنفسه . (٢٤) أخ .

(٢٥) حقد . (٢٦) ظاهر . (٢٧) تحرير معنى البيت أفدى بنفسى أخاً لى يغيب عنى غيبة عدو . (٢٨) طبيعة . (٢٩) يقول إنه شيخ فى علمه وفنونه ولكنه فى سن الفتيان وطبيعتهم . وقد تربى فى بيت السجايا المختارة فعمر ذلك البيت به . (٣٠) يختار

(٣١) بخل أى هو يختار أطايب الفنون التى يمكن اجتناؤها وتحصيلها ولا يبخل بإفادة الناس منها لأن البخل يشين الغنى فهو يتجنبه لئلا يعاب به . (٣٢) مطر . (٣٣) أعالى الجبال .

(٣٤) الباء للتعدية كما فى ذهبت به . (٣٥) غصن رطب يقول إنه مطر يفى حق الرى فينبت سريعاً فى أعالى الجبال التى لا يرجى منها ذلك أشجاراً مخصبة رطبة الأغصان .

فقالَ حيَّاكَ اللهُ يا بُنَىَّ . وأقرَّ بك عَينَىَّ[١] . ثم نادى يا صلمَعة بنَ قَلمَعةَ[٢] . أينَ الأبياتُ الملمَّعة[٣] . فوثب يافعٌ[٤] من الأَنباط[٥] معتدلُ الشَّطاط[٦] . وأنشد :

أَسمَرُ كالرّمحِ لهُ عاملٌ[٧]   يُغضى[٨] فيَقضى[٩] نَخِبٌ[١٠] شَيِّقُ

مِسكٌ لَماهُ[١١] عاطرٌ ساطعٌ[١٢]   فى جَنَّةٍ[١٣] تشفى شَجٍ[١٤] يَنشَقُ

أكحلُ[١٥] ما مارسَ كحلاً لهُ   جَفنٌ غضيضٌ غَنِجٌ ضَيِّقُ

دُرُّ دموعٍ حولهُ كاسدٌ   فى جنب زَيفٍ[١٦] بَيِّنٍ يَنفُقُ[١٧]

لا لِعُهُودِ الوُدِّ راعٍ ولا   فى شَجَنٍ[١٨] ذى فتنةٍ يُشفِقُ

ما مالَ إلاَّ راعَ[١٩] أحلامَه[٢٠]   خِفَّةُ شَنْفٍ[٢١] خَنِثٍ يَخْفُقُ[٢٢]

---

(١) يقال أقر الله عينه أى أعطاه حتى يكتفى فلا تطمح عينه إلى من هو فوقه . وقيل حتى تبرد ولا تسخن لأن للسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة .   (٢) كناية عمن لا يعرف نسبه .

(٣) التى شطر منها مهمل من النقط وشطر معجم كما ترى .   (٤) شاب .   (٥) قوم ينزلون سواد العراق .   (٦) حسن القامة .   (٧) سنان .   أراد به عينه الشبيهة بالسنان فى الهيئة والمضاء . وهى استعارة مدلول عليها بقوله يغضى وهو من خواص العين .

(٨) يكسر جفنه .   (٩) يموت .   (١٠) رجل لا قلب له .   (١١) اللمى سمرة مستحسنة فى الشفة يشبهونها بالمسك .   (١٢) فائح الرائحة .   (١٣) كناية عن وجهه .   (١٤) أراد به المحب المشتغل القلب . وحذف الياء منه فى حال النصب تجوزاً كما فى قوله :

يقلب رأساً لم يكن رأس سـيد   وعينـاً له حولاء باد عيوبهـا

وكان الوجه أن يقول بادياً .   (١٥) أهداب عينه سوداء خلقة .   (١٦) غش .

(١٧) أى دموع المحبين التى يذرفونها حوله كالدر كاسدة بإزاء غش الوشاة الذى هو نافق عنده .   (١٨) حزن .   (١٩) جعله يعجب .   (٢٠) جمع حلم وهو الأناة والعقل .   (٢١) حلية تعلق فى أعلى الأذن .   (٢٢) يقول إن له تعقلا ووقاراً فإذا مال اضطرب شنفه فى أذنه فتعجب وقاره منه . وذلك كناية عن كثرة تردده فى الميل للين قوامه .

ولاحَ سطرُ[١] الآسِ[٢] أكمامُهُ[٣]   بينَ شقيقٍ[٤] غَضَّةٌ تُفتقُ[٥]

فقال عِشتَ ونُعِشت . يا زهرةَ البَنْجَكِشْت[٦] . ثم قال قم يا أبا الهيفاء[٧] وأنشِدِ الأَبياتَ الخيفاء[٨] . فقام فتىً ميمون النَّقيبة[٩] أنقى من مِرْآة الغريبة[١٠] . وأنشد :

ظبيةٌ[١١] أدماءُ[١٢] تُفنى الأَملا   خَيَّبَتْ كلَّ شجيٍّ[١٣] سألا

لا تَفى العهدَ فتشفينى[١٤] ولا   تُنجِزُ الوعدَ فتشفى العِلَلا

غَضَّةٌ[١٥] العُودِ تَثَنَّت[١٦] مَرَحًا[١٧]   بَضَّةٌ[١٨] اللَّمس تَجَنَّت[١٩] مَلَلا[٢٠]

تقتضى أحكامَ بغىٍ طالمـا   نَفَذَت أحكامُها بينَ المَلا

بجبينٍ[٢١] كهلالٍ فَتَنَتْ   كُلَّ ذى علمٍ يَزِينُ العَمَلا

فى لَمَاها بنتُ كرمٍ[٢٢] تختشى   سُكرَ جَفنٍ حكمُهُ نقضُ الولا[٢٣]

بينَ وردٍ[٢٤] شَفَةٌ واردُها   يبتغى الماءَ فيجنى العَسَلا

دُرَرٌ بيضٌ لهـا فى أحمرٍ   فى سوادٍ بين مسكٍ فى طِلا[٢٥]

---

(١) صف .   (٢) كناية عن عذاره وهو ما نبت من الشعر فى صفحة وجهه .   (٣) جمع كم وهو غلاف الزهر .   (٤) النبات المعروف .   كنى به عن خده .

(٥) أى تنشق .   (٦) القرنفل .   (٧) اسم امرأة .   (٨) التى كلمة منها منقطة وكلمة بلا نقط . مأخوذة من خيف العينين وهو أن تكون الواحدة سوداء والأخرى زرقاء .   (٩) مبارك النفس .   (١٠) مثل يضرب فى النقاء لأن المرأة الغريبة لا تزال تتعهد مرآتها وتجلوها .   (١١) غزالة .   (١٢) صفة من الأدمة وهى سمرة تضرب إلى البياض .   (١٣) حزين .   (١٤) تسكن غيظى .   (١٥) رطبة .

(١٦) تمايلت .   (١٧) نشاطاً .   (١٨) رخصة .   (١٩) من الجناية .

(٢٠) ضجراً .   (٢١) متعلق بقوله فتنت .   (٢٢) خمرة   (٢٣) يريد أن جفنها شديد الإسكار حتى إن الخمرة تخاف أن يسكرها . ثم يقول إن هذا الجفن حكمه نقض العهد لأنه يخلف ما يشير به من الأنس إلى من يناظره كما قال الشاعر :

وعد لعينيك عندى ما وفيت به   يا طالما كذبت عينى عينـاك

(٢٤) عبارة عن خدها .   (٢٥) كنى بالدرر عن الأسنان . وبالأحمر عن اللثة =

فِتنةٌ[١] صمّاء[٢] يَثنى[٣] وصلها   فِتنةَ[٤] الدّاء فتبغى حِوَلا[٥]

شَنَّفت[٦] سَمْعَ شجيٍّ[٧] كُلّما   قَبَضَتْ عُوداً[٨] فغنّت رَمَلا[٩]

قال عافاكَ وشفاكَ . ولا فضَّ[١٠] فاكَ[١١] . ثم نادى يأبا الشَّمطاء[١٢] . علىَّ بأَبياتك الرقطاء[١٣] . فوَثَبَ غُلامٌ من الخواص . كدُرَّة الغَوَّاص . وأَنشد :

ونديمٍ باتَ عندى   ليلةً منهُ غليلُ[١٤]

خافَ من صُنعٍ جميلٍ   قُلتُ لى صبرٌ جميلُ

قُرّةٌ[١٥] لى ميلُ قلبٍ   منكَ يا غُصناً يميلُ

سَيّدى[١٦] رِقَّ لِذلّى   سَيّدى عبدٌ[١٧] ذليلُ

قلبُهُ قد ذابَ من وجـد[١٨]   بهِ[١٩] ظلَّ يسيلُ

لَذَّ لى حَجْرٌ[٢٠] قديمٌ   تحتَ هجرٍ يستطيلُ

قاتلى وجهٌ بديعٌ   زاجرى عنهُ قليلُ

فلما استتمّ الإنشاد . وقف الشيخُ بالمرصاد[٢١] . وقال أُعيذكم بالله من أعيُن الإنس وأَنفس الجان . فقد خرج من أفواهكم اللؤلؤُ والمَرجان . ولقد أباهى[٢٢]

و بالسواد عن اللمى أى السمرة فى الشفة كما مر . و بالمسك عن النكهة وهى رائحة انفم . و بالطلا أى الخمر عن الريق . (١) أى هى فتنة . (٢) شديدة . (٣) يرد . (٤) بلية أو عذاب . (٥) أى أن وصلها يدفع فتنة الداء فتتحول عن المريض (٦) وضعت شنفاً وقد مر . (٧) طروب مشتغل القلب . (٨) آلة طرب . (٩) نوع من ألحان الغناء مركب من النوى والعراق . (١٠) فرق . (١١) يريد به أسنانه . (١٢) اسم امرأة . (١٣) التى حرف منها مهمل وحرف معجم . (١٤) حرارة العطش . وهو فاعل بات . (١٥) ما قرت به العين . (١٦) منادى . (١٧) أى أنا عبد . (١٨) شوق وحزن . (١٩) الضمير للوجد . (٢٠) حبس عن التصرف (٢١) المكان الذى يرصد فيه . (٢٢) أفاخر .

بكم كلّ من نَطَقَ بالضاد[١] . حتى يُقالَ أَينَ العينُ[٢] من الصاد[٣] . قال سهيلُ فلما انتهت الـكِنانة[٤] إلى الأهزَع[٥] . ولم يبقَ فى القوس مَنزَع[٦] . وَثَبَ الشيخُ ميمون . كأَنهُ رَيبُ المَنون[٧] . وقال ما بالُكَ ذكرتَ اللَّجينَ[٨] وتركت اللجَين[٩] . أَين عاطلُ العاطل الذى لا نقطةَ فى اسمهِ ولا مُسمّاهُ كالدّال دون العين[١٠] . قال هيهاتِ ذلك مما يُخال[١١] . ولا يُقال . حتى يُصاغَ من الخاتم خَلْخال . فإن استطعتَهُ جعلناك حالىَ الحالى فى الحال[١٢] . فصوَّب[١٣] الشيخ نظرَهُ وصَعَّد[١٤] . ثم اُقعَنْسَس[١٥] وأنشد :

حَولَ دُرٍّ[١٦] حَلَّ[١٧] وَرْدُ[١٨]   هل لهُ للحرّ وِرْدُ[١٩]

---

(١) يكنى بمن نطق بالضاد عن العرب لأن هذا الحرف لا يوجد إلا عندهم . (٢) الذهب . (٣) النحاس (٤) الجعبة التى توضع فيها السهام . (٥) آخر سهم فى الكنانة . (٦) مصدر قولهم نزع فى القوس إذا جذب وترها . يريد بذلك أن القوم أفرغوا جهدهم حتى لم يبق لهم شىء . (٧) حوادث الدهر . (٨) الزبد الذى يخرج على شدق البعير . (٩) الفضة . أى مالك ذكرت الخسيس وتركت النفيس . (١٠) العاطل هو الحرف الذى لا نقطة له . مأخوذ من عطل المرأة وهو خلوها من الحلى . ونقيضه الحالى وهو المنقط . مأخوذ من الحلية وهى ما يتزين به من الذهب والفضة . والعاطل قد يكون بالنظر إلى مسماه فقط كما فى الأبيات السابقة مع قطع النظر عن اسمه كحرف العين مثلا فإنه باعتبار مسماه إذا وقع فى التركيب لا تلحقه نقطة . ولكن باعتبار اسمه مما تقع فيه الياء والنون من قولك العين . وقد يكون بالنظر إليهما جميعاً كالدال فإنها إذا وقعت فى التركيب لا تنقط . وكذا إذا نطق باسمها لم يكن لها نقطة أيضاً كما ترى . ولذلك سماه عاطل العاطل . وهو لم يسبق إليه أحد من الشعراء . (١١) يظن و يتصور فى المخيلة . (١٢) أى لا ينظم شعر من هذا النوع ولا يبنى كلام حتى يصاغ من الخاتم خلخال . يريدون أن ذلك مستحيل ولذلك علقوه على أمر مستحيل لأن الخاتم لا يمكن أن يصاغ منه خلخال . وذلك لأن الحروف التى هى عاطل العاطل ثمانية فقط . وهى الحاء والدال والراء والصاد والطاء واللام والهاء والواو . فلا يسع المتكلم أن يركب منها كلاماً كثيراً . ولذلك قالوا له إن استطعته جعلناك حالى الحالى مقابلة لعاطل العاطل . أى أعطيناك عطاء كثيراً تتزين به حتى تكون زينة المتزينين . (١٣) أحدر . (١٤) رفع (١٥) أخرج صدره وأدخل ظهره . (١٦) عبارة عن الأسنان . (١٧) نزل . (١٨) عبارة عن الخد . (١٩) أى هل للرجل الكريم ورود إليه .

لِحَصُورٍ [١] حُلوِ وَصْلٍ ... وِرْدُهُ للصَحْوِ طَرْدُ

ولهُ صَوْلٌ [٢] وطَولٌ [٣] ... ولهُ صَدٌّ وردٌّ

دَهرُهُ حَرُّ صُدُورٍ ... هل لهُ للهِ حَدٌّ [٤]

قالَ فلما اعتبر الجماعة . سِرَّ تلك الصِّناعة . تكأكأوا [٥] عليهِ من الأمام والخلف . وقالوا رُبَّ واحدٍ يُعدَلُ بألف . وإنَّا لنراك شاسع [٦] الوَطَن . واسع الفِطَن . فخذ هذهِ النَّفَقَةَ عدًّا [٧] . وإن شئتَ أن تُقيمَ معنا أجرينا عليك ماءً عِدًّا [٨] . قال حَبَّذا لولا دَينٌ أثقلَ حاذى [٩] . وحالَ [١٠] دون نفاذى . وهذا غريمى [١١] قد لَصِقَ بى كالقار . ولو هبطتُ إلى النَّار . حتى أسعى لهُ بمائة الدِّينار [١٢] . قال فنقَدُونى مائةً نَدَرى [١٣] . وقالوا قد صادفتَ قَدَراً [١٤] . فاتَّخِذْ لوِردك صَدَراً [١٥] . فشَكَرَ الشَّيخُ ذلك الامتنان [١٦] . وأنشد بصوتٍ مِرنان [١٧] :

ساعِدونى على جميلِ الثَّناء ... عن جميلٍ أَضاعَ حقَّ الوفاء [١٨]

وهَبُونى قلباً يقــومُ أمامى ... فأنا قد تركتُ قلبى وراءى [١٩]

---

(١) يعنى أن هذا الدر والورد لشخص حصور أى بخيل ضيق الخلق . (٢) سطوة . (٣) غلبة . (٤) أى كل أيامه حرارة لصدور المحبين فهل له حد يقف عنده . واستخرج من قوله هل له لله الجناس المستوى المقلوب . (٥) اجتمعوا . (٦) بعيد . (٧) معدودة أى محصورة فى عدد معلوم . (٨) لا ينقطع . أى جعلنا لك نفقة جارية مستمرة . (٩) ظهرى . (١٠) اعترض . (١١) الإشارة إلى سهيل يدعى أنه هو غريمه الذى له الدين . (١٢) أى بمائة الدينار المعهودة . إشارة إلى أن له عليه هذا القدر . (١٣) يقال أعطاه مائة ندرى أى أخرجها له من ماله . (١٤) أى عناية من الله . (١٥) رجوعاً . أى اكفف عن ملازمته . (١٦) الإنعام . (١٧) مفعال من الرنين . (١٨) يقول يا أيها الناس ساعدونى على شكر هذا الجميل الذى أضاع منى حق الوفاء . وهو قد أراد الإيهام بهذه الأبيات . فقوله أضاع حق الوفاء يحتمل أن يكون قد أضاع حق الوفاء بالشكر عنه . وحق الوفاء بالعهد على رجوعه إليهم وإقامته معهم . (١٩) يحتمل أن يكون قد ترك قلبه عند الجماعة الذين يريد أن يفارقهم . وعند أهله الذين يريد أن يرجع إليهم .

بَشِّروا زوجتى وأُمِّى وأُختى ... وغُلامى براحةٍ وهناء [١]

فعلى الرَّملةِ ابتنيتُ عُهُودى ... وعلى الدَّرس قد عقدتُ وَلائى [٢]

قال فأُعجِبَ القومُ بأَبياتهِ المُخيلة [٣] . ولم يأْبَهوا [٤] لما فيها من الدخيلة [٥] . ثم ضرب [٦] الشيخ لهم مَوعِداً [٧] . ووَدَّعَهم مرتعداً . وخرج من بينهم وعدا [٨] فلما بِنَّا [٩] . وأَمِنَّا [١٠] . قال يَهنِئُكَ المَغنَمُ البارد [١١] . فرُبَّ ساعٍ لقاعد [١٢] . وإن الحسَنات . يُذهِبنَ السَّيِّئات . فاُغتَفِرْ ما فات [١٣] . لكنِ اُغرُبْ إلى حيثُ لا مُناقِش [١٤] لِئلّا يَفرُطَ منك بادرة [١٥] فتجنى على أهلها بَراقِش [١٦] . وأنا غداةَ غدٍ أَخرُجُ من المُحيط [١٧] . وأَدَعُ القومَ ينتظرونَ حتى يَرجِعَ نشيط [١٨] . ثم كَبَّرَ واستغفر . وأنشد حين أدبر :

---

(١) يحتمل أن تكون هذه البشارة لأهله محمولة على السعادة وهم فى أوطانهم . وعلى الانتقال إلى الرملة حيث يجدون الراحة ورغد العيش فلا يتحولون عنها . (٢) يحتمل أن يراد بالرملة اسم البلد فيكون البناء صحيحاً . وقطعة الرمل فيكون ساقطاً . وكذلك الدرس يحتمل أن يكون من مراجعة القراءة فيشير إلى حفظ العهد . ومن المحو كما فى قولهم درست الريح رسم الدار فيشير إلى نكثه .
(٣) الموهمة . (٤) يفطنوا . (٥) الدسيسة الباطنة . (٦) أى جعل .
(٧) أى ميعاد لرجوعه . (٨) أسرع . (٩) أبعدنا . (١٠) من الأمن . أى أمنا أن يطلع أحد على ما نتكلم به . (١١) أى الغنيمة التى نلتها بلا تعب يعنى الدنانير .
(١٢) أى رب شخص يسعى لأجل آخر قاعد عن السعى وهو مثل أصله أن قوماً من العرب وفدوا على الملك النعمان بن المنذر وكان فيهم رجل من بنى عبس يقال له شقيق فمات عند النعمان . ولما أنعم عليهم الملك بالعطايا بعث إلى أهل شقيق بمثل عطية القوم . وكان عنده النابغة الذبيانى فقال رب ساع لقاعد فذهبت مثلا .
(١٣) يشير بقوله ما فات إلى ما كان يرزأه به أحياناً كما مر . (١٤) محاسب .
(١٥) ما يسبق به اللسان . (١٦) مثل أصله أن قوماً كانوا هاربين من وجه أعداء لهم وكان لهم كلبة يقال لها براقش . فبينما هم يسيرون ليلا نبحت وكان الأعداء بالقرب منهم يفتشون عليهم فاهتدوا إليهم بنباح الكلبة وأوقعوا بهم فسار بها المثل . يقول لسهيل أن يعتزل إلى مكان لا يخشى فيه رقيباً يحاسب عليه فى مكره لئلا يسقط بكلمة فيعرف القوم أنه قد مكر بهم . فيكون سهيل قد أحدث هذه الجناية . (١٧) أخذه من محيط الدائرة . أى أخرج من دائرة البلد .
(١٨) هو رجل من مرو كان بناء . بنى لزياد ابن أبيه داراً بالبصرة وانصرف إلى مرو قبل=

رأيتُ النّاسَ قد قاموا على زُورٍ وبُهتانِ[1]

فلا يَرعَون ميثاقاً ولا حُرمةَ إحسانِ

فإن راعيتَ إنساناً فما أنتَ بإنسانِ[2]

قال سهيلٌ فتركتُهُ وانطلقتُ من هناك . ولم أدرِ ماذا فَتَك بعد ذاك .

المقامة البصرية

حَدَّثنا سهيلُ بنُ عَبّادٍ قال : قَدِمتُ البَصرةَ ذاتَ العُوَيمِ[3] . فى رَكْبٍ من بنى الهُجَيم[4] . فجعلتُ أطوفُ بها ما أطوف . حتى انتهيتُ إلى مِرْبَدِها[5] الموصوف . وإذا فى ساحتهِ قومٌ قد تَوَسَّدوا ثراها[6] . وهم كالحلقةِ المُفرَغة لايُدرى أينَ طرفاها[7] . فطارحتُهم سُنَّةَ التسليم . وقلتُ هل فى الكأسِ حظٌّ لنديم[8] . قالوا قد أتيتَ أهلاً ونَزَلتَ سهلاً[9] . فجلستُ لديهم جُلوسَ التلاميذ . بحضرة الأساتيذ . وأخذوا يتداولونَ الفنونَ ويُبرِزون كلَّ مكنون . حتى خاضوا

إتمامها . فكان ينتظر رجوعه وكلما قيل له تمم دارك يقول حتى يرجع نشيط من مرو . فذهب قوله مثلا . (١) كذب . (٢) أى أن الناس قد تخلقوا بهذه الأخلاق حتى صارت طبيعة لهم . فإن لم تكن مثلهم لم تكن إنساناً منهم . (٣) أى فى بعض الأعوام . (٤) بطن من بنى تميم . (٥) ساحة تحبس فيها القوافل . وكانت العرب تجتمع إليها من الأقطار فكانوا يتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون كما يفعلون بسوق عكاظ . (٦) أى اضطجعوا على ترابها .

(٧) هذا مثل قالته فاطمة بنت الحوشب الأنمارية امرأة زياد العبسى . كان لها سبعة أولاد ذكور من نجباء العرب فقيل لها يوماً أى أولادك أفضل قالت الربيع لا بل عمارة لا بل فلان . ثم قالت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل . هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . أى هم كالدائرة لا يدرى أولها من آخرها . (٨) أى هل لى نصيب فى مجالستكم . (٩) هذا تقدير قولهم للقادم أهلا وسهلا فصرح به هنا .

فى فنِّ البديع[1] . وأفاضوا فى التجنيس والتنويع[2] . وكان فى صدر الحلقةِ شيخٌ أفطَسُ العَرْنَبة[3] كأنه أحدُ الأغربة[4] فقال قد علمتم أيها الناس . أن أعظم الجناس . ما لا يستحيل بالانعكاس[5] . فمن ظفر بفرائدهِ[6] الحسنى . فازَ بالمقام الأسنى[7] . وسُلِّمَ له البديعُ لفظاً ومعنًى . قالوا نراكَ من أهل الدّار . وفرسانِ المِضمار[8] . فحدِّثْ بنعمة ربِّك . ولا تكتم ذخيرةَ لُبِّك . قال نعم كنتُ قد نظمت أبياتاً منه فى الصِّباء . وهى معجزةٌ عند الأدباء . قالوا إن رأيتَ أن تُنشِدَنا إياها فلك المِنَّة . وقد دفعتَ عن نفسك الظِّنَّة[9] . فتلا إنَّ بعضَ الظنِّ إثم . ثم قال اسمعوا يا أولى العلم . وأنشد يقول :

قَمَرٌ يُفرِطُ عَمْدًا مُشرِقُ رشَّ ماءَ دمعُ طَرْفٍ يرمُقُ[10]

قُرطُهُ يَفدى جِلاهُ أيْمَنٌ من مياهِ الجِيد فيهِ طُرُق[11]

---

(١) هو الفن المشهور . قيل أول من وضعه عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد العباسى وصنف فيه كتاباً لطيفاً . وكانت وفاته سنة مائتين وست وتسعين للهجرة .

(٢) من البديع ما يقال له الجناس وهو اللفظى . ومنه ما يقال له النوع وهو المعنوى . وهذا هو المراد هنا بالتجنيس والتنويع . (٣) الأنف . (٤) أى أغربة العرب وهم سودانهم سموا بذلك لسوادهم . وهم فى الجاهلية عنترة بن معوية بن شداد وخفاف بن ندبة وأبو عمير بن الحباب وسليك ابن السلكة وهشام بن عقبة وهو المخضرمين . وفى الإسلام عبد الله بن خازم وعمير بن أبى عمير وهمام بن مطرف ومنتشر بن وهب ومطر بن أوفى وتأبط شراً والشنفرى وحاجز . (٥) هو جناس يقال له المقلوب المستوى أيضاً . وهو أن يأتى المتكلم بكلام يستوى فى القراءة طرداً وعكساً نحو رمح أحمر . فإنك إذا ابتدأت فى القراءة من آخر حروفه بالتبعية إلى أولها كان الحاصل من ذلك رمح أحمر أيضاً . وكذلك أرض خضراء وعقرب تحت برقع وكل فى فلك وغير ذلك . (٦) جمع فريدة وهى الدرة الكبيرة فى العقد . (٧) الأشرف . (٨) الميدان . (٩) أى إذا أنشدتها دفعت عن نفسك التهمة بأنك قد ادعيت بما ليس عندك . (١٠) قوله يفرط أى يتجاوز الحد ويرمق ينظر . أى أن العين التى تنظره ترش دمعها فى محبته . (١١) القرط ما يعلق فى أسفل الأذن . والجيد العنق . يعنى أن قرطه المعلق فى أذنه اليمنى يكون فداء لنقاء بدنه لأنه أنقى منه . وأراد بالمياه المضافة إلى الجيد ما يكون فى نصل السيف من الفرند تشبيهاً لجيده بالسيف فى البياض واللمعان . أى أن جيده يكسو القرط فرنداً تتشعب منه طرق فيه كما يتشعب فرند السيف فى صفحته .

قَبَسٌ يدعو سَناهُ إن جَفا　　فجَناهُ أُنسُ وعدٍ يَسبُقُ(١)

قد حلا كاذبُ وعدٍ تابعٌ　　لَعِباً تدعو بذاكَ الحَدَقُ(٢)

قرَّحت ذا عَبَراتٍ أربعٍ　　عبَراتٌ أربعٌ إذْ تُحرِق(٣)

قَلِقٌ يَلثِمُ نادى عَبْـلةٍ　　لبعيـدٍ إنَّ مِثلى قَلِق(٤)

قَفرةُ الربعِ أهالت فِتيَةً　　فتَـلاها عِبَرٌ لا ترفُق(٥)

قد حماها رَكْبُ ليـلٍ حافظٌ　　فاحَ ليـلٌ بكَراها مُحدِق(٦)

قرَّ فى إلْفِ نَداها قلبُـهُ　　بلقاها دَنِفٌ لا يَفرَق(٧)

قَطَنَتْ هَيْفاءُ فيـهِ آمِناً　　إنَّما هيفاءُ فيهِ تَنطِق(٨)

قِفْ ألَا قاضٍ فإنّى ضاقَ بى　　رَيبُ قاضينا فضاقَ الأُفُق(٩)

---

(١) القبس شعلة النار . وسناه نوره . أى أن نور هذا القبس يدعو الناس إليه كما تدعو الأضياف نار القرى . فإن جفا كانت الفائدة منه التعلل بما سبق من وعد هذه النار بالضيافة .　　(٢) الإشارة فى قوله بذاك إلى اللعب من باب وضع المظهر موضع المضمر كما فى قول الشاعر تريدين قتلى قد ظفرت بذلك . أى قد حلا وعده الكاذب الذى يتبع تلاعب أحداقه التى تدعو به إلى الهوى .　　(٣) قوله ذا عبرات أى صاحب دموع يريد به العاشق . و يمكن أن يكون على تقدير حذف مضاف أى جفن ذى عبرات أو محاجره ونحو ذلك . وذكر أنها أربع لأن كل عين يسيل منها عبرتان من طرفيها . وقوله إذ تحرق لأن دموع الحزن حارة فهى تقرح بحرارتها .

(٤) النادى المجلس . والعبلة الممتلئة البدن . و بعيد صفة لموصوف محذوف . أى يقبل أرض نادى امرأة هذه صفتها . وهذا النادى لصاحب بعيد كناية عن رحيل قومها بها . وقوله إن مثلى قلق أى أن مثلى لا بد أن يكون قلقاً وهو التفات من الغيبة إلى التكلم .　　(٥) يقول إن هذه الحبيبة قد أقفرت دارها لرحيلها فألقت هولا على الفتيان الذين يتصببون بها فجرت و راءها منهم دموع متواترة لا تتلطف بهم ولا تكف عن سيلانها .　　(٦) أى أنها مصونة تحميها فرسان فى الليل عند نومها. ثم يقول إن الليل الذى تنام فيه يتعطر بأنفاسها فتفوح روائحه .　　(٧) نداها جودها . والدنف المريض المجهود . وهو مبتدأ والجملة قبله خبر . ويفرق يخاف . أى أن هذا العاشق المريض كان قد استقر قلبه من الخفقان عند ألفته على جودها باللقاء . فكان طيب القلب لا يخاف .

(٨) هيفاء اسم الحبيبة أى أنها سكنت فى قابه فأمن بذلك . و إذا تكلم فهى التى تتكلم فى قلبه لأن الكلام ينبعث من القلب .　　(٩) يقول لصاحبه قف على . أليس قاض آخر ينصفنى فإن بغى قاضينا نحن العشاق قد جعلنى فى ضيق حتى ضاقت على جوانب الأرض .

قَلَمٌ يجرى سيَلقَى ضَرَماً　　مُرُّ ضِيقٍ ليس يُرجَى مَلَق(١)

قِيلَ افتح بابَ جارٍ تَلْقَهُ　　قُلتُ راجٍ بابَ حَتْفٍ أليَق(٢)

قلَّ طَعْمٌ دُونَهُ رُدٌّ بكم　　كَبِدٌ رَهْنٌ ودمعٌ طَلِق(٣)

فلما فرغَ من أبياتهِ صَفَّقَ القوم . وقالوا لا عهْدَ لنا بمثل هذه قبل اليوم . فإن هذا الجناس كالعدَدِ المعدول . لم يتجاوز أربعةً فى المنقول(٤) . قال سهيلٌ فانبرَى لَهُ رجلٌ أشمطُ(٥) العارضَين(٦) . يكادُ يشربُ الرافدَين(٧) . وقال يا هذا إن الفخرَ بالأثير(٨) . لا بالكثير . وإنما يُنافَسُ فى الثّمين . لا فى السّمين . فكم فِئةٍ قليلة غَلَبتْ فِئةً كثيرةً بإذن اللهِ واللهُ معَ الصَّابرين . قال صدقتَ إن خيرَ الكلام ما قَلَّ وَجَلَّ . ولكن من ادَّعى بلا بَيِّنَةٍ فقد زَلَّ وذَلَّ . قال أعوذُ بالله من زَلَّةِ العَمْدِ(٩) . وسفاهة العبد . إنى نظمت بيتين لبعض

---

(١) المراد بالضرم النار و بالملق التلطف . أى أن قلم هذا القاضى الذى يجرى فى الحكم علينا سيلقى ناراً من عذاب الله . وقوله ليس يرجى ملق يحتمل أن يكون صفة قد حذف عائدها كما فى نحو واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً أى لا تجزى فيه . فيكون التقدير ليس يرجى له ملق . و يحتمل الاستئناف على تقدير سؤال كأنه قيل أليس يرجى له ملق فقال ليس يرجى .　　(٢) حاصل ما فى البيت أنه يقول قد أشير على باستبدال هذه الحبيبة البعيدة بغيرها ممن حولى من الجيران فقلت إن الراجى لفتح باب الموت أجمل من الراجى لفتح باب الاستبدال .　　(٣) انصرف فى هذا البيت إلى خطاب أحبته فقال إن الطعم الذى يؤدى فى محبتهم إلى فك كبده المرهونة وكف دمعه الطاق هو قليل لا يعتد به . أشار بذلك إلى الحتف المذكور فى البيت السابق أى أن طعمه قليل عنده إذا أدى إلى الرد المذكور لأن الحالة التى هو فيها أمر منه . و يحتمل أن يكون المراد أن طعم الموت المذكور فى البيت السابق هو الذى يفك رهن كبده و يكف انطلاق دمعه وما دون هذا الطعم مما يقضى هذه الحاجة فهو قليل فى الوجود . و فى قوله رد بكم على كلا الوجهين استخدام لا يخفى .

(٤) العدد المعدول فى نحو جاء القوم أحاد ومثنى ونحوهما أى واحداً واحداً واثنين اثنين وهو لم يسمع من العرب إلا إلى الأربعة فلم يقولوا جاءوا خماس فى رواية الأكثرين . وكذلك هذا الجناس فإنه لم ينظم منه أكثر من أربعة أبيات وهى التى نظمها الشيخ الحريرى فى مقاماته .　　(٥) مختلط السواد بالبياض .　　(٦) صفحتى الوجه .　　(٧) الفرات ودجلة .　　(٨) النفيس .

(٩) أى الزلة التى صدرت عن قصد .

الأمراء . طَرْدها[1] مديحٌ وعكسها هجاء . فكان يُنظَرُ إليهما بعين الأحوَل[2] ويَقْصُرُ عنهما الباعُ الأطول . قال فهَلُمَّ بما فتح الله عليك . قال لَبَّيك[3] وسَعْدَيك[4] . وأنشد :

باهى المَراحِمِ لابِسٌ كرَماً قديرٌ مُسنِدُ[5]
بابٌ لكلِّ مُؤمِّلٍ غُنْمٌ لَعَمْرُكَ مُرفِدُ[6]

ثم عمدَ إلى قلبهما . فإذا هو يقول بهما :

دَنِسٌ مَريدٌ قامِرٌ كَسْبَ المحارمِ لا يَهابْ[7]
دَفِرٌ مُكِرٌّ مُعلَمٌ نَغِلٌ مُؤمِّلُ كلِّ بابْ[8]

قال فاستفزَّت[9] القوم تلك الصِّناعةُ العذراء[10] . وقالوا علِمَ اللهُ أنها لأغربُ من العنقاء[11] . ثم أقبلوا على الرّجل يَرجُمونه بالأحداق[12] . وقالوا فِداكَ أهل العراق . فمن أنتَ ومن أىّ الآفاق . فتنهَّد . ثم أنشد :

---

(١) نقيض العكس . (٢) يقال إن الأحول يرى المنظورات مضاعفة فيرى الواحد اثنين والاثنين أربعة وهلم جرا . فيقول إن هذين البيتين إذا عكسا يحصل من عكسهما بيتان غير الأولين بخلاف الأبيات السابقة فإن البيت منها إذا عكس يكون الحاصل منه ذلك الكلام بعينه . وعلى هذا فيكون كل بيت منهما بيتين أحدهما مديح والآخر هجاء وهى صناعة غريبة لم يسبق إليها أحد من الشعراء.
(٣) إجابة بعد إجابة . (٤) مساعدة بعد أخرى . (٥) قوله باهى المراحم أى حسن المراحم بناء على أنها تقع منه بحيث تحسن الرحمة لأن من المراحم ما ليس يحسن لوقوعه حيث يجب القصاص . وقوله لابس كرماً أى أن الكرم قد صار لباساً له لشدة اشتماله عليه . وقوله مسند صفة لقدير كالقيد له لأن القدير إذا لم يكن مسنداً للناس فلا خير فى قدرته . (٦) الغنم بالضم ما تناله بغير مشقة . والمرفد المعين . (٧) المريد العاتى المتجبر . والمقامر الذى يلعب بالقمار . (٨) الدفر النتن وقوله مكر يحتمل أن يكون من الكرير وهو صوت المخنوق أى دفر محدث للكرير بخبثه . أو أن يراد به صاحب الحملة فى الحرب فيكون بكسر الميم وفتح الكاف . والمعلم من وسم نفسه بعلامة الحرب . وصف هذا الدفر بهما كناية عن شدته وقوة ريحه الخبيث . والنغل الفاسد النسب وهو يعود إلى الرجل المهجو . فكأنه يقول هو دفر شديد وهو نغل أيضاً .
(٩) استخفت . (١٠) التى لم يسبق إليها أحد . (١١) طائر يضرب به المثل فى الغرابة لعظم جثته واقتداره . (١٢) أى تتراكم أبصارهم عليه .

أقبلتُ من أرضِ اليمامَه[1] أبغى العِراقَ على أستِقامَه[2]
جُبتُ[3] الدَّلامِسَ[4] بالعَرا مِسِ[5] فى النَّعامةِ[6] كالنَّعامَه[7]
زُرْتُ الكِرامَ لأنّنى قد كنتُ من أهلِ الكَرامَه
أتلفتُ مالى فى النَّدى[8] لا فى الصَّبابةِ والمُدامَه
أقرى الضُّيوفَ وأقترى[9] حَمْلَ الحَمالةِ والغَرامَه[10]
وأسُدُّ خَلّةَ مُقتِرٍ[11] وأرُدُّ لَهفةَ ذى ظُلامَه
وأجيزُ كلَّ مُقرِّظٍ[12] عن كلِّ شِعرٍ أو مقامَه
قسَّمْتُ مالى فى المَلا ونَسِيتُ سَهْمى فى الحُتامَه[13]
وسَقيتُهم مائى فَرِحتُ كأنَّنى كعبُ بنُ مامَه[14]
بَرِح الخَفا[15] فندِمتُ لكن حيثُ لا تُجدى[16] النَّدامَه
دَرَجَ[17] الصِّبا والمالُ والنَّفسُ العَزيزةُ والشَّهامَه
عذَّبتُ نفسى بالقُنو طِ[18] وعَذَّبَتْنى بالمَلامَه
قد كنتُ أطمَعُ فى الغِنى واليومَ أقنَعُ بالسَّلامَه

---

(١) مدينة قديمة على ست عشرة مرحلة من البصرة إلى نحو الحجاز . (٢) أى على خط مستقيم . (٣) قطعت . (٤) الظلمات. (٥) النياق الشديدة . (٦) المفازة .
(٧) تحتمل الطائر المعروف وفرس الحرث بن عباد . (٨) الكرم . (٩) أتتبع .
(١٠) ما يتحمله الرجل عن القوم من الدية ونحوها . (١١) أى أقضى حاجة فقير .
(١٢) أى أعطى كل مادح جائزة . (١٣) ما بقى على المائدة من الطعام . أى قسمت مالى بين الناس ونسيت أن أترك لنفسى حصة من بقية هذا المال . (١٤) هو الذى سقى رفيقه النمرى نصيبه من الماء ومات عطشاً . (١٥) أى ظهر المكتوم . (١٦) تنفع .
(١٧) ذهب . (١٨) قطع الرجاء .

فلما انتهى إلى هذا البيت أَنَّ كالمريض . وقال حالَ[١] الجريض[٢] . دونَ القريض[٣] . وأثرت[٤] شؤونه[٥] تفيض . فرثى القومُ لبلواه . وفثأوا[٦] ماجاش[٧] من جواه[٨] . وقالوا جمع الله شملك . فأين خلفتَ[٩] أهلك . قال قد خلّفتُ الجربَّة[١٠] . فى الشَّربَّة[١١] لا يملكون حبَّة[١٢] . وهم ينتظرون إيابى[١٣] على الأثر . كما تنتظرُ الأرضُ وسمىَّ[١٤] المطرَ . فجمعوا له قبصةً[١٥] من العين[١٦] و[١٧] قبضةً من اللّجين[١٨] . وقالوا إن الكريم أولى بالكرم . قال نعم . وأهلُ الحرمةِ يرعون الحُرَم . قالَ سهيلٌ وكنتُ قد عرفتُ أنه الخزامىُّ عند نظرى إليه . لكننى أنكرتُ أغبرارَ عارضيهِ[١٩] فلما فصلنا عن المكانِ قلتُ حيَّا اللهُ أبا ليلى . قال وميمونٌ يفدى سهيلًا . قلت عهدى بك شيخاً فكيف رجعتَ كُهيلًا[٢٠] . فأنشد :

لا تُنكِرَنَّ ما ترى من الشَّمَط[٢١] ... إن السّوادَ والبياضَ إذ وَخَط[٢٢]

من طرفِ الأمور فاُخترتُ الوسط[٢٣]

---

(١) اعترض . (٢) الريق يغص به . (٣) الشعر . وهو مثل أصله أن رجلا كان له ابن نبغ فى الشعر فنهاه عنه . فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الموت فأذن له أبوه حينئذ فى قول الشعر فقال حال الجريض دون القريض . أى أن غصة الموت حالت بينه و بين قول الشعر فذهب قوله مثلا . (٤) شرعت . (٥) مجارى دموعه . (٦) سكنوا .

(٧) يقال جاشت القدر إذا غلت . (٨) حرقته . (٩) تركت خلفك .

(١٠) العيال يأكلون ولا ينفعون . (١١) مكان فى بلاد العرب . (١٢) من الذهب أو من الحنطة . (١٣) رجوعى . (١٤) مطر الخريف .

(١٥) ما يؤخذ بين الأصابع . (١٦) الذهب . (١٧) ما يقبض بالكف .

(١٨) الفضة . (١٩) أى أنه لم يثبت معرفته لأنه يعهده أشيب فرآه بين الشيب وسواد الشعر لأنه كان قد خضب لحيته . (٢٠) متوسط السن . وفى تصغيره دلالة على قلة كهولته فيكون أميل إلى الشباب . (٢١) اختلاط السواد بالبياض . (٢٢) ظهر .

(٢٣) أى أن السواد والبياض طرفان وما بينهما وسط وهو المختار فإنهم يقولون خير الأمور الوسط .

فانعكفتُ عليهِ انعكافَ المغرم الكَلِف[١] . واعتنقتُهُ اعتناقَ اللام للألِف[٢] . فأخذ يُسايرنى على رِسْلِهِ[٣] . حتى انتهى بى إلى رَحْلِهِ . وأقمتُ فى صُحْبَتِه قريرَ العين . إلى أن نعَبَ بيننا غُرابُ البين .

المقامة النجدية

قال سهيلُ بنُ عبَّادٍ: عَبِثَت بى لواعج الوجد[٤] . إلى زيارةِ نجد[٥] فتسنَّمتُ الأكوار[٦] . وطوَيتُ الأنجاد والأغوار[٧] حتى نقعت[٨] بحلولها غُلَّتى[٩] . بعدَ اللَّتيَّا والَّتى[١٠] . فلما سرَت عنى وَعْكةُ السُّرَى[١١] . وقضتْ أجفانى وَطَر الكَرَى[١٢] . قُمتُ أطوف الحِلّة[١٣] بعد الحِلَّة وأتفقّدُ الأحياءَ المُشمَعِلَّة[١٤] حتى إذا كنتُ صَبيحةَ يوم . بمُنتَدَى[١٥] زعيم[١٦] القوم . وفَدَ شيخٌ أوهى[١٧] من الشِّبام[١٨] . يليهِ فتىً أشهى من البَشام[١٩] . فجثم[٢٠] الشَّيخُ مُحْقَوقِفاً[٢١] وانتصبَ الفتى مُحْصَوْصِفاً[٢٢] . وقال أعزَّ الله الوالى . وأذلَّ أعناق الموالى . إن هذا الشَّيخ قد استعبدنى مُنْذُ عام . كما تُستَعبَدُ أولادُ حام[٢٣] . وهو عُبَيدُ فَلْسِهِ[٢٤] لا يقوم بِمِيرة[٢٥] نفسهِ . فتراهُ ألأَم . من أَسْلَم[٢٦] . وأحمقَ من عِجْل[٢٧] .

---

(١) المولع . (٢) باعتبار الخط عند اجتماعهما معاً . (٣) مهله .

(٤) الشوق . (٥) قسم من أقسام بلاد العرب أعلاه تهامة واليمن وأسفله العراق والشام .

(٦) أى علوت رجال الجمال . (٧) أى الأراضى المرتفعة والمنخفضة .

(٨) أرويت . (٩) عطشى . (١٠) أى بعد لقاء الشدائد والدواهى . وقيل المراد باللتيا الداهية الصغيرة و باللتى الداهية الكبيرة وهو من أمثالهم . (١١) أى ذهبت مشقة مشى الليل . (١٢) حاجة النعاس أى النوم . (١٣) منزلة القوم .

(١٤) المتفرقة . (١٥) مجتمع القوم . (١٦) رئيس (١٧) أضعف .

(١٨) خيط تشد به المرأة برقعها إلى قفاها . (١٩) شجر طيب الرائحة .

(٢٠) جلس متلبداً بالأرض . (٢١) منحنياً . (٢٢) ضاماً رجليه إلى بعضهما . (٢٣) السودان . (٢٤) مثل يضرب للبخيل . (٢٥) زاد . (٢٦) رجل يضرب به المثل فى اللوم . (٢٧) هو عجل بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل . كان له فرس كريم فقيل له يوماً ما سميت فرسك . فقام ففقأ عين الفرس وقال سميته الأعور . فصار مثلا فى الحماقة .

وأَقلَقَ من الحِجْل (١) . في الرِّجْل . بَيْدَ أنَّهُ (٢) مَلاَّقٌ مَذّاق (٣) . سَفْسافٌ (٤) شَقْشاق (٥) . لا يَزالُ يَهْدُرُ (٦) ويُهَذْرِم (٧) . ويُبَرْبِرُ (٨) ويُدَمدِم . ويَلغُو بالكَلِمِ الجاهليَّة . ويَعْبَثُ بالتَّمويهات (٩) الخُزَعْبِلِيَّة (١٠) . إذا طلبتُ منهُ قِطْعة . أَنشَدَني أبياتاً سَبْعة (١١) . وإذا قُلتُ لى مسئلة (١٢) . قال هاتِ الدَّواةَ والمِرْمَلة (١٣) . وإذا التمستُ منهُ الصَّرْف (١٤) . جاءَنى بألف حرف (١٥) . وهو يتأنَّق (١٦) بهُجَنٍ (١٧) جامدة . من لُغة العَرَب البائدة (١٨) . ليس لها طُلاوةٌ ولا فائدة . فثارَ الشّيخ كالمَعْتوه (١٩) . وقد أزبَدَ فُوهُ (٢٠) . وقال بَهْراً (٢١) لك يا عَفَنْقَس (٢٢) يا ماقط (٢٣) الأَنقَس (٢٤) . متى تَشَدَّقتُ بهذه الشَّغاشغ (٢٥) . وتَمطَّقتُ بهذه الضَّغاضغ (٢٦) ذَرْ عنك هاتى الجَعْظَرة الخِضَمَّة (٢٧) . والفَظاظة (٢٨) المُضْلَخِمَّة (٢٩) . وإلا قَفَختُ (٣٠) رأسك العَفَنْجَج (٣١) .. ولو كنت حفيد العَرَنْجَج (٣٢) . قال فضحك القوم من هذا التنصُّل (٣٣) . الذي يَشْهَدُ

(١) الخلخال . (٢) أى غير أنه . (٣) غير مخلص .
(٤) سخيف العبارة . (٥) كثير الكلام . (٦) يكثر الكلام .
(٧) يسرع فى كلامه . (٨) يتكلم بألفاظ وحشية كألفاظ البرابرة .
(٩) هى أن تخبر بخلاف ما سئلت . (١٠) الباطلة . (١١) أى يحتمل معنى القطعة على قطعة الشعر التى هى سبعة أبيات أو عشرة . (١٢) أى طلبة .
(١٣) أى يحملها على المسئلة العلمية . (١٤) أى أن يصرفنى عنه . (١٥) أى يحمل الصرف على علم التصريف فيجيء بتصاريف شتى . (١٦) يتفنن معجباً .
(١٧) جمع هجنة وهى مالا يستحسن من الكلام . (١٨) هم الذين بادوا وانقرضت أجيالهم . وهم سبع قبائل وهى عاد وثمود وصحار وجاسم وو بار وطسم وجديس . وكانت مساكنهم بعمان والبحرين واليمامة وكانت لغتهم غليظة خشنة .
(١٩) المجنون . (٢٠) طلعت عليه الرغوة . (٢١) تعساً . (٢٢) لئيم .
(٢٣) عبد العبد المعتق . (٢٤) ابن الأمة . (٢٥) جمع شغشغة وهى ضرب من هدير الجمال . (٢٦) جمع ضغضغة وهى أن تلوك العجوز التى لا أسنان لها شيئاً بين حنكيها .
(٢٧) اترك هذه الغلاظة العظيمة . (٢٨) سوء الخلق والتكلم بالقبيح .
(٢٩) الشديدة . (٣٠) ضربت . وهو خاص بالضرب على الرأس .
(٣١) الضخم . (٣٢) اسم حمير بن سبأ جد ملوك اليمن . وحمير لقب غلب عليه . والحفيد ابن الابن . (٣٣) يقال تنصل من ذنبه أى تبرأ منه .

للتُّهَمَة بالتأَصُّل (١) . وكان بينهم رجلٌ أَضْجَم (٢) . فتَبازَخ (٣) كالتَّيَّار (٤) الأَعْجَم (٥) . وقال إنى أَراكَ فى العربيَّة راسخ القَدَم . فهل تعرِفُ أيَّام الأُسبُوع فى القِدَم . فتَخازَرَ (٦) تَخازُرَ القِيان (٧) . ثم قال جرَى ابنا عِيان (٨) . فاستَجْلِ البَيان . وأنشد :

لأوَّلِ الأُسبُوعِ قِيلَ أَوْهَدُ ... فى قِدَم الدَّهرِ وأَهوَنُ الغَدُ
ثمّ جُبـــارٌ بعدهُ دُبارُ ... فمُؤْنِسٌ عَرُوبةٌ شِيارُ (٩)

قال لا تَرِبَت (١٠) يَداكَ . ولا طَرِبَت (١١) عِداكَ . إن كنتَ تعرف أَلقابَ الشُّهور . فأنت العَلَم المشْهور . فأَكتَامَ (١٢) وأَشرأَبَّ (١٣) . ثم جثم (١٤) واستَتَبَّ (١٥) . وأَنشد :

مُؤْتمِرٌ وناجِرٌ خَـــوَّانُ ... من لقبِ الأَشهُرِ والصَوَّانُ
زَبَّاءُ بائدٌ أَصَمٌّ واغـــلُ ... وبعـــد ذاكَ باطلٌ وعاذلُ
ورَنَّةٌ وتَـبْرَكُ الختامُ ... وقيلَ غيرُ ذاكَ والسّلامُ (١٦)

(١) أى أن هذه الألفاظ الوحشية التى أتى بها تشهد بإثبات تهمة الفتى له . (٢) معوج الأنس . (٣) أخرج صدره . (٤) الموج . (٥) الذى ارتفع قبل أن يتنفس .
(٦) ضيق جفنيه . (٧) الجوارى المغنيات . (٨) هما خطان يخطهما العائف فى الأرض يزجر بهما الطير ثم يقول ابنا عيان أسرعا البيان . فإذا علم أن القامر يفوز بقدحه قيل جرى ابنا عيان . وهو كناية عن الفوز و إصابة الحاجة .
(٩) المراد بأوهد يوم الأحد وهلم جرا إلى شيار وهو السبت . (١٠) افتقرت .
(١١) فرحت . (١٢) قعد على أطراف أصابعه . (١٣) مد عنقه متطاولا .
(١٤) جلس متمكناً . (١٥) استقام وتمكن . (١٦) قال الخطيب خير الدين المدنى فى تذكرته إن المحرم كان يقال له عند الجاهلية المؤتمر لأنه أول السنة فكل شيء من أقضيتها يأتمر به . وصفر الناجر من النجر أى شدة الحر . والربيع الأول الخوان من الخيانة . والثانى الصوان من الصيانة . وجمادى الأولى الزباء وهى الداهية الكبيرة . والأخرى البائد لكثرة القتال والقتل فيها . ورجب الأصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا تسمع فيه أصوات السلاح . وشعبان الواغل وهو الداخل على قوم ولم يدعوه لهجومه على رمضان . ورمضان الباطل وهو كوز يكال به الخمر . وشوال العاذل=

قال لله دَرُّكَ ما أَبعدَ غَوْرَكَ[1] . وأَقربَ نَورَكَ . فاُختِم بذِكر الأَشهُرِ الحُرُم إن كنتَ ممن أَتمَّ ما كَرُم . فقال اللَّهم اجعلنا ممن حَسُنَ خِتامُهُ . وانجلى قَتامُهُ . ثم أنشد :

ثلثةٌ من الشُّهُور سَرْدُ[2] ووَاحدٌ عقيبَ ذاكَ فَرْدُ
ذو قعْدةٍ وحِجَّة مُحرَّمُ ورَجَبٌ وَهْيَ الشُّهُورِ الحُرُم[3]

قال فلما رأى القومُ اتّساعَ رِوايتِهِ وارتِفاعَ رايتِهِ . علموا أنهُ صِلُّ أَصلال[4] . فنظروا إليهِ بعين الإجلال . ولما رأى إقبالهم عليهِ . وارتياحهم إليهِ . قال يا جَهابِذة[5] اليَلامع[6] . وهَرابذة[7] المعامع[8] . عَلِمَ اللهُ أَنى لستُ بجَعْد الكَفّ[9] . كما يَزعُمُ هـذا الهجَفّ[10] ولكن قد أَناخَ الدهر علىَّ بكَلْكَلِهِ[11] . وأَخنَى علىَّ الهرَم بأَفْكَلِهِ[12] فلم يبقَ لى عافطة . ولا نافطة[13] .

لأنه من أشهر الحج فكان يثنيهم عن غير مهماته . وذو القعدة رنة لأن الأنعام كانت ترن فيه لقرب النحر . وذو الحجة تبرك لأنهم كانوا يتركون الإبل فيه . وقيل كان يقال لربيع الثانى بصان . و لجمادى الأولى حنين . وللأخرى رنى . ولشعبان العاذل . ولرمضان ناتق . ولشوال الوعل . ولذى الحجة برك . ولا خلاف فى البقية . و إلى هذا أشار بقوله فى آخر الأبيات وقيل غير ذاك . وقوله والسلام أى والسلام عليك . وذلك من باب الاكتفاء البديعى .

(١) عمقك . (٢) أى مجتمعة . (٣) قيل لها ذلك لأن العرب كانوا لا يستحلون فيها القتال إلا بنى خثعم و بنى طى فكانوا يستحلونه فيها . وكانت العرب تستحل دماء هؤلاء فيها أيضاً لاستحلالهم الدماء فيها . (٤) حية تقتل لساعتها إذا لسعت . وهو مثل يضرب للشديد الدهاء . (٥) جمع جهبذ وهو النقاد الخبير . (٦) جمع يلمعى وهو الذكى المتوقد الفؤاد . (٧) الذين يوقدون النار عند المجوس . (٨) مواقع الحرب . أى أنهم يضرمون نار الحرب كما يضرم الهرابذة نار عبادتهم . (٩) أى بخيل .

(١٠) الجافى الثقيل .

(١١) صدره . أى ضغطه كما يضغط البعير من أناخ عليه . (١٢) الأفكل الرعدة . أى أن الهرم جعله يرتعد من ضعفه . (١٣) المراد بالعافطة النعجة و بالنافطة العنز . وهو مثل .

وصِرتُ أسغب[1] من السِّيدان[2] . بعد ما كنت أقرى الهَيْدان والزَيْدان[3] . ولو استطعتُ أَنْ أَقومَ بأمرى . لَأَطلقتُ هـذا الفتى من أَسْرى . ولكننى ما زِلتُ أُعَلِّل نفسى بالمُنَى . وأُمَنِّيه بالغِنى . لعلَّ الله يُقَيِّض[4] لى فتحاً قريباً . أو يكتُبُ لى بمثلكم نصيباً . قال: فاستعذب القومُ كلامَهُ . واستعذروا غُلامَهُ[5] وقالوا قد كتب ربُّك على نفسهِ الرّحمة . ولكن ما كلُّ سوداء تمرةً ولا كلُّ بيضاء شحمة[6] . فإن النّاس قد لَؤُموا[7] وجَشِعوا[8] . حتى لو سُئِلوا التُّرابَ أوشكوا أن يَملوا و يمنعوا[9] فإن شِئتَ أن تُجاوِرَنا غابرَ هذه الشَّيْبة . وتكتفى ذُلَّ السُّؤال وغُصَّة الخَيبة . و إلَّا فخُذ هـذه النِّحلة[10] واعتمد الرّحلة . قال حَبَّذا جِوارُكم لولا ضَفَفٌ[11] خَلّفْت . ومَوعِدٌ أَخْلَفْت[12] . فوَصَلوهُ كلُّ واحدٍ بدينار . وأَرحَلوهُ ناقةً ذات سِفار[13] . قال سهيلٌ وكنت قد تنسَّمتُ ريحَ خِزامهِ . وظَلَفتُ[14] نفسى عن التزامهِ[15] . فلما شقَّ العصا[16] خرجت فى أَثَرِهِ . حتى صِرتُ بمَرْمَى بَصَرِهِ[17] . فقال أَنتَ من المولّدين[18] فى هذا الزّمان . لا تعرف لُغَةَ يعرُبَ[19] بن قَحْطان . فعُدْ إلى أن يُصادِفَنا تُرْجُمان[20] . ثم

---

(١) أجوع . (٢) جمع سيد وهو الذئب . يضرب به المثل فى الجوع ولذلك يقال للجوع الشديد داء الذئب . وقيل إن الذئب لا يزال كل زمانه جائعاً لأن جوفه يذيب كل ما يقع فيه حتى العظم فلا يبقى له شبع . (٣) أى أقرى من أعرفه ومن لا أعرفه . وهو مثل .
(٤) يقدر . (٥) أى وجدوه معذوراً . (٦) أى ليس كل الناس موضعاً للرحمة والإحسان . وهما مثلان . (٧) بخلوا . (٨) حرصوا أشد الحرص .
(٩) من قول الشاعر :

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا و يمنعوا

(١٠) العطية .
(١١) أن تكون العيال على المائدة أكثر من الطعام الذى عليها . (١٢) أى أنه قد ضرب لأهله موعداً لرجوعه لا يريد أن يخلفه . (١٣) حديدة توضع على أنف البعير بمنزلة الحكمة من الفرس . (١٤) منعت . (١٥) اعتناقه . (١٦) أى فارق الجماعة .
(١٧) أى بحيث يبصرنى . (١٨) أى عربى غير محض لأنه قد ربى بين الحضر .
(١٩) هو جد العرب القديم . (٢٠) يقول ذلك على سبيل التهكم والرقاعة .

أُنسَدَر (١) يعدو كالظّليم (٢) . وغادَرَني (٣) كالسَّليم (٤) . فعُدت وأنا أعجَبُ من فنُونه . في جِدِّه ومُجُونه (٥) .

٢ – ناصيف اليازجي الشاعر

كان من الطبيعي لشاعر يبعثه الله في القرن التاسع عشر بعد غفوة الشعر قروناً عدة أن يكون امتداداً للفحول من الشعراء القدامى فينسج على منوالهم ويلتزم نفس الموضوعات التي التزموها من غزل ومدح ورثاء وحكم وما إلى ذلك .

١ – الغزل

عفة يوسف ومريم

وهي مما نظمه في صباه ولا غرو أن يكون الشعر لسان الشباب يعبر به عن خفقان قلبه وخلجات نفسه :

ألْوَى عليَّ فضمَّني وضمَمْتُهُ … وصدورُنا بصدورنا لم تعلمِ

أهوَى عليَّ وفيَّ عفّةُ يوسفٍ … حتى يميل وفيه عفّةُ مريمِ

فيروح بين صَبابَتي وحنينه … وأروحُ بين حديثه وتبسُّمي (٦)

خُضْنا مليًّا في الحديثِ كما جرى … وكأننا للشوق لمْ نتكلّمِ

عاتبتُها فاستضحكتْ وعتابُها … ظُلمٌ وكيف عتابُ مَنْ لم يأثَمِ

ما كنتُ أختارُ العتابَ وإنما … قد كان ذلك حيلةَ المتكلّمِ

حتّى رنتْ وكأنَّ هدبَ جفونها … وسوادَ قلبي قطعةٌ لمْ تُقسَمِ

(١) هرول . (٢) ذكر النعام . (٣) تركني . (٤) الذي لسعته الحية . يقال له ذلك تفاؤلا بالسلامة . (٥) هزله .

(٦) الصبابة : الشوق ورقة الهوى والولع الشديد .

حوراء تُدمي بالسّيوفِ جفُونها … ولحاظُها ترمي القلوبَ بأسهمِ (١)

قطرتْ دماً من فوق وجنتها فما … كذبتْ علينا إنّهُ لونُ الدّمِ

عينُ الغزالةِ عينُها وجبينُها … لا ذاتُها مِنْ رقّةٍ وتبسّمِ

ولطالما نفر الغزالُ وما درتْ … كيفَ النِّفارُ وعِرضُها لمْ يُكلَمِ

يا ليلةً سمح الزّمانُ ببعضها … بعضَ السّماح وليته لمْ يندمِ

قد كنتُ أرجو مثلها فبلغتُه … والحادثاتُ تقولُ طرفك فاسلَمِ

حتّى دخلتُ الدارَ ساعةَ غفلةٍ … وعرفتُ ربعَ الدّارِ بعدَ توهُّمِ (٢)

فكأنَّ كلَّ الدهر مُدَّةُ لحظة … وكأنَّ كلَّ الأرضِ دارةُ درهمِ

ولقد جلستُ إلى الفتاةِ مُسامِرًا … ووشاتُنا من غافلين ونُوَّمِ

ولطالما جلستْ إلينا قبلها … طيفاً وكان الطّيفُ غيرَ مسلّمِ

حتى رجعتُ كما رجعتُ وأخمَصي … متأخّرٌ في نيّةِ المتقدّمِ (٣)

يا هل ترُى علمت بنات عشيرتي … أني لقيتُ الشّمس بعد الأنجُمِ

إنْ كانَ بُعدي ساءَهُنَّ فسرَّني … يا غُربتي طولي ولا تتصرّمي

باللهِ يا ريحَ الصَّبا قبلَ الضُّحى … إنْ جُزْتِ هاتيكَ الدِّيارَ فسلّمي

قسماً بها إلّا وقعتِ بصدرها … بين النّهود ولا أقولُ لكِ الْثمي

وضممت مَعْطِفَها وقلت له ترُى … كم فيك غمزَةُ حسرةٍ مِنْ مُغرَمِ

هيهاتَ أسلوها وقد ختمتْ على … قلبي بخاتَمِ ثغرها المتبسِّمِ

(١) حوراء : مؤنث أحور وهو من اشتد بياض عينه بياضاً وسوادها سواداً .

(٢) إشارة إلى مطلع معلقة عنترة حيث يقول :

هل غادر الشعراء من متردم … أم هل عرفت الدار بعد توهم

(٣) أخمص القدم : ما لا يصيب الأرض من باطنها وربما يراد به القدم كلها .

لو لم يكنْ للشَّوقِ من سببٍ كفى ذاكَ الوداعُ ومَدُّ ذاكَ المِعصمِ
إنَ كان قتلُ النَّفسِ غير مُحلَّلٍ قولوا لها فالوصلُ غيرُ مُحرَّمِ

يا ليتنى كنت الرسول

وهذه نفحة أخرى من نفحات القلب الصابى والجوانح المشوقة يودعها الشاعر أوزانه وقوافيه ويضمنها العواطف تختلج فى صدره و يبعث بها إلى الحبيب رسول وجد وصبابة :

من غنْجِ عينيكِ أم من لطف معناكِ أيديِ الهوى أوقعتْ قلبيِ بأشراكِ
يا ظبيةَ فى النَّقا ترعى الخزامَ بهِ لم تعلمى أنَّ عين الصبّ ترعاكِ (١)
روحى فداكِ لقد أضنى هواكِ فتًى ما كانَ يدرى الهوى والله لولاكِ
وردٌ بخدَّيكِ أم هذا خضابُ دمى فقـد أراقت دمى بالسِّحرِ عيناكِ (٢)
هل تعلمين بشوقٍ فى ضمائرِنا لا تنطفى نارُه إلَّا بمرآكِ
هانتْ علينـا المنايا فى هواكِ وما أحلى عذابَ الهوى إن كان أرضاكِ (٣)
لولاكِ ما عرفتْ أجفانُنا سهراً فمـا عرفنا الهوى حـتَّى عرفناكِ
إنى لقد غرتُ من ذكرٍ عليكِ جرى ومن لحاظِ رسولى حينَ يلقاكِ
فقلتُ يا ليتنى ،كنتُ الرَّسولَ ويا ليتَ الرَّسولَ أنا والـكلّ مُضناكِ
يا نسمةً فى الحمى مرَّتْ بها سَحَراً طوباكِ يا ليتنى إيَّاكِ طوباكِ (٤)

---

(١) الظبية : الغزالة . النقا : قطعة من الرمل محدودبة . الخزام : نبات طيب الرائحة . الصب : المحب .

(٢) خضاب : صباغ .

(٣) المنايا : جمع منية الموت .

(٤) الصواب طوبى لك أى السعادة لك واتصالها بالكاف غير جائز إلا فى الشعر .

هل تحملين إليها من صَبابتنا كما حملتِ إلينا عنـد مسراكِ
حكيتِ رقَّة عِطفَيها ونفحتها ولا نسلّمُ أنَّ الفضل للحاكى

ب — المدح والرثاء

النصر والظفر

لم يكن الشاعر مع انقطاعه لخدمة الأمير بشير الشهابى مكثراً فى مدحه وتهنئته وهذه قصيدة مشهورة له يمدح بها الأمير بعد الحروب التى نشبت فى سنة ١٨٣٠

يَهنيكَ يَهنيكَ هذا النَّصْرُ والظَّفَرُ فانعَمْ إذَنْ أنتَ بل فلتنعمِ البَشرُ
ولم يغبْ عنك تأييدٌ خُلقت لهُ لـكنه البحرُ بين المـدِّ ينجزِرُ
مادتْ لهيبتكَ الدُّنيا فلو رُفعتْ أطوادُ حلمك منها دكَّها الخطرُ
واستهولَ الدَّهرُ بأساً كان يَعرفهُ من قبلُ منك ولـكن فاتهُ القدرُ
أريتهُ النَّاسَ فى الدُّنيا وساحتها فـكراً تمرُّ به الأشباحُ والصُّورُ
كلُّ البـلادِ إذا لم تستقرّ بهـا رسومُ دارٍ عَفَتْها الرِّيحُ والمطرُ
آلتْ عليك المعالى لا تفارقُها قبـل القضا وعلى وجهِ القضا نفرُ
وأقسمَ السَّعدُ لا يلقاكَ راجلُهُ إلَّا وفى رأسهِ من مشيه أثرُ
وما أخذتَ بسيفِ الدَّهر مغتنماً لـكنَّ ربَّكَ فى هذا لهُ وَطَرُ
متى اتَّقى المرءُ مولاهُ على حذَرٍ لا بأسَ إن فاتهُ مِنْ غيرهِ الحذرُ
وما اعتصمتَ بحبلِ الله مكتفياً إلَّا وعندك فى أسرارهِ نظرُ
لاصُنتَ وجهكَ عَنْ وقعِ الحرابِ فقد عـلَّمْتها تحتَ ذيلِ الرِّيح تنكَسِرُ
عليك دِرعٌ من الدِّيباجِ واقيـةٌ وكفُّكَ السَّيفُ لا تُبقى ولا تذَرُ

مَتى رأيتكَ بعد النّاسِ مختبراً   علمتُ أنّكَ خُبْرٌ والورى خَـبَرُ
تباركَ اللهُ مَنْ أنشاكَ فى جَسَدٍ   خَلّى التّرابَ على الياقوتِ يفتخِرُ
للهِ عِزَّةُ بيتِ الدّينِ فيكَ فقَدْ   أمسى على فَلَكِ الشّعرى له خَطَرُ(1)
غارتْ نجومُ الثُّريّا مِنْ جلامدِه   وظلَّ يحسدُ هادى ليلهِ السَّحرُ

أنت الـكرامة

نفحة من الشعر فيها الإجلال والإكبار يخصها الشاعر بشاعر الأمير بشير الشهابى وقتذاك المعلم بطرس كرامة .

خطرتْ وفى قلبى لذاكَ خفوقُ   ورنتْ فـكلُّ الصّاحبين رشيقُ(2)
هيفاء مالَ بصبّها سكرُ الهوى   لـمّـا تمايلَ عِطفُها الممشوقُ(3)
قامت تديرُ لنا الرّحيق وليتها   طلبت مجانسةً فدارَ الرِّيقُ(4)
وشدتْ فأطربتِ الجمادَ وهيَّجت   حتى علمنا كيف يُحْيى البوقُ
ناظرتُها فسكرتُ من لَحظاتها   وشربتُ خمرتها فـكيفَ أُفيق
ورأيتُ رقّةَ خصرها فوهبتُها   قلبى فإنَّ كليهما لَرَقيقُ
غيـداءُ آنسةٌ نفورٌ عندها   يحيا الرّجاءُ ويُقتلُ التّوفيقُ(5)
كالآلِ يُطْمِعَ لامعاً متقرِّباً   ولِمَنْ أتاه زَفرةٌ وشهيقُ(6)

(1) الشعرى : الكوكب الذى يطلع فى الجوزاء .
(2) بدأ الناظم قصيدته بالغزل ثم تخلص منه إلى المدح على طريقة ذلك العصر وما تقدمه .
(3) هيفاء : مؤنث أهيف وهو الرقيق الخصر .
(4) الرحيق : الخمر .
(5) غيداء : مؤنث أغيد وهو من مالت عنقه ولانت أعطافه .
(6) الآل : السراب .

هيهاتِ ما كبراً مشيبى إنّما   هذا الدّلالُ على المشيبِ يسُوقُ
إنّى امروٌ طَربٌ على غزَلِ المها   وعلى مناظرةِ الحسانِ مَشوقُ
حجّتْ إلى قلبى العيونُ فإنّه   بيتٌ ولكن لا أقولُ عتيقُ
يا ربّةَ الحسنِ العزيزِ لكِ الحشا   مِصْرٌ غلا فسطا عليه حريقُ
نعمانُ خدّكِ فى الرّياضِ فأدمعى   هذا لهـا خالٌ وذاكَ شقيقُ
دمعى حديثٌ لا يزالُ مُسلسَلاً   أبداً وقلبى بالغـرامِ خليقُ
قلبٌ كخالكِ فى المحبّةِ طيّبٌ   لكـنَّ ذا مسكٌ وذاكَ فتيقُ
هو شافعىٌّ عنـده حسنُ الوفا   لابنِ الـكرامةِ سُنّةٌ وحقوقُ
ومَتى الوفاءُ وكلَّ يومٍ بَرّةٌ   لكَ فى المحاسنِ للوفاءِ سَبُوقُ
تأتى النّفائسُ منكَ لا مطروقةً   من دونهنَّ الدّرهمُ المطروقُ
اللهُ أكبرُ فى الأئمّةِ فَرْدُها   ولفيفُهـا القرونُ والمفـروقُ
رجلٌ وماذا وصفُهُ وكفى بهِ   رَجـلاً له المفهومُ والمنطوقُ
حَسَنُ المعانى والبيانِ كلامُهُ   جَزْلٌ ومعناهُ الرّقيقُ دقيقُ
فإذا تكلّمَ راحَ يَفعلُ لفظُهُ   ما راحَ يفعلُ بالنُّهى الراووقُ(1)
حىّ القريضَ وآخذيه وقُلْ لهُ   قد كانَ مُفْتَرَضٌ وأنتَ طليقُ
ها أنتَ فى يدهِ رقيق إن تَحُل   عنها فإنك آبقٌ مسروقُ
لكَ من قريحته السّليمة صِحّةٌ   وطِرازُ وشىٍ لا يرثُّ أنيـقُ
هى ذلكَ الإكسيرُ صنعُ اللهِ لا   الإكسيرُ ممّا يصنعُ الإنبيقُ(2)

(1) الراووق : إناء يروق فيه الشراب والمقصود هنا هو الشراب نفسه .
(2) الإنبيق : وعاء الاستقطار وهو ما يستقطر به عصير العنب والزهر وغيرهما .

تلقى الهلالَ فيستحيل بهـا إلى ... شمسٍ لها عنـد الأفولِ شروقُ
يا « بطرسُ » الشَّهمُ الكريمُ مكانُهُ ... وبنانُهُ ولسانُهُ المِنطيقُ (١)
أنتَ الكرامةُ وابنُها وأبٌ لها ... نَسَبٌ كريمٌ فى الكرامِ عريقُ
طُفتُ البلادَ وقد جلستُ إليك لا ... سفرٌ ولم تَمنُنْ علىَّ النوقُ (٢)
ما فاتنى أنّ الأوائلَ قد مَضَوا ... وبقيتَ أنت ولى إليك طريقُ

سر أبيه

كان الشعر دائماً أبداً فى العصور القديمة معراج الشعراء إلى الأمراء والولاة فلا بد أن ينزل الشيخ عند هذه القاعدة وأن تهتز قريحته شادية بمآثر الوالى وكان إذ ذاك الأمير أمين أرسلان :

لِمَن الهوادجُ فى عَراء الهوجَلِ ... تحتَ القبابِ تشقُّ ذيلَ القسطلِ (٣)
يتتبَّع الآثارَ قلبى خَلفَها ... فلو اثنينَ وطئنَه بالأرجُلِ
أبراجُ أقمارٍ تغيبُ نهارَها ... فيها وتطلُعُ فى الظلامِ المُقبلِ
حَمَّلتنى ما لو تحمّل بعضَهُ ... حُمرُ النِّياقِ لما نهضن بمَحملِ
لى ذاتُ خدرٍ بينهُنَّ أنالُها ... وأوَدُّ لو رضيت فقالتْ أنتَ لى
قامت تصولُ من الرِّماحِ بأبيضٍ ... ومِنَ السُّيوفِ بأسودٍ لم يُصْقَلِ
ولقد أقولُ لِمَن أقامَ بمرصدٍ ... ما كان ضرَّك لو أقمتَ بمعزلِ
أقصرْ عناك وحيث حلّتْ نعمةُ الـ ... ـرُّوح الأمينِ على محمَّدَ فانزلِ

(١) المنطيق : البليغ .
(٢) النوق : جمع ناقة .
(٣) الهوادج : جمع هودج وهو محمل له قبة كانت تركب فيه النساء . والهوجل : المفازة البعيدة لا أعلام فيها . والقسطل : غبار الحرب .

زرْ ذلك الربعَ الخصيبَ وقِفْ به ... يوماً وقوفَ الآملِ المتأمِّلِ
يومٌ يحقّ له التّذكّرُ بعد ما ... طال المدى لا يومَ دارةِ جلجلِ

ومنها :

يروى حديثَ الأولين كأنهُ ... من عهد طسمٍ شاهدٌ لم يغفلِ
أبصرتُ من ألطافهِ ما لم يَسعْ ... لفظُ الرُّواةِ فكان ما لم يُنقلِ
ورأيتُ سرَّ أبيه فيه مُصوَّراً ... كالشّخص يبدو من وراء سجنجلِ (١)
إنْ لم تُصِب قَدمي الحلولَ بداره ... فالقلبُ فيها نازلٌ لم يَرحَلِ
هى أفضلُ الأوطانِ عندى رتبةً ... ولذاك قد خصَّصتها بالأفضلِ
دارٌ بها نيلُ الفوائدِ والمُنى ... ولها العوائدُ في الجميلِ الأجمَلِ
لا غيّرَ الرحمنُ عادتَه على ... مَنْ لم يُغيِّر عادةً لمؤمِّلِ

الدهر نيسان

ويستحيل نظام الحكم فى لبنان إلى متصرفية فيعمد الشعر إلى تحية المتصرف نصر الله فرنكو باشا مشيداً بمكارمه وعوارفه :

لا الدرُّ درٌّ ولا المرجانُ مَرْجانُ ... إذا نطقتَ ولا للدرّ أثمانُ
وحيثما كنتَ بستانٌ تخالُ به ... جنّاتُ عدنٍ فما لبنانُ لبنانُ
وكلّ شهرٍ ربيعٌ منك نحسَبُهُ ... حتّى كأنَّ جميعَ الدّهر نيسانُ
يا أيُّها القمرُ المسعودُ طالعُهُ ... بدرُ السَّماء متى أشرقتَ كيوانُ (٢)
كأنّما السعدُ لمّا جئتَ زائرَنا ... طِرسٌ وأنت لذاك الطِّرس عنوانُ

(١) السجنجل : المرآة .
(٢) كيوان : اسم لنجم .

ومنها :

قد قمتَ فى جبلٍ منكَ النجاةُ بهِ — كذلكَ الفُلكُ لمَّا فاضَ طوفانُ

عليكَ رايةُ إقبالٍ وحولكَ من — ملائكِ العرشِ إنسانٌ وأعوانُ

فى راحتيْكَ من اللُّطفِ البديعِ لَنا — ماءٌ ومِنْ بأسِكَ المرهوبِ نيرانُ

ومنها :

حيَّا الحيا حلبَ الشَّهباءَ كم نبتَتْ — فى روضِها النَّاضرِ الأغصانِ أغصانُ

هاتيكَ بستانُ أفرادٍ بهِ شجرٌ — مِنْ خصبهِ كلُّ عودٍ منه بستانُ

* * *

أقامَ شأنكَ بين الناسِ مُرتفعاً — من كلِّ يومٍ لَهُ فى خلقه شانُ

إنْ كانَ غيرُكَ تكفيهِ لِمادحهِ — قصيدةٌ لم يكن يكفيكَ ديوانُ

الميت والمولود

وتختلف الحياة بين الأفراح والأتراح ويشترك الشاعر فى مآسيها اشتراكه فى مباهجها فيقول معزياً صديقاً له :

لا تَبْكِ ميتاً ولا تفرحْ بمولودِ — فالميتُ للدودِ والمولودُ للدُّودِ

وكُلُّ ما فوقَ سطحِ الأرضِ تنظرهُ — يُطوى على عدمٍ فى ثوبِ موجودِ

بئسَ الحياةُ حياةٌ لا رجاءَ لها — ما بين تصويبِ أنفاسٍ وتصعيدِ

لا تستقرُّ بها عينٌ على سِنَةٍ — إلاَّ على خوفِ نومٍ غيرِ محدودِ (١)

ما أجهلَ المرءَ فى الدُّنيا وأغفلَهُ — ولا تُحاشي سليمانَ بنَ داودِ

(١) السنة : النوم .

يرَى ويعلم ما فيها على ثِقَةٍ — مِنهُ ويغترُّ مِنْها بالمواعيدِ

كلٌّ يفارقُها صِفْرَ اليدَينِ بلا — زادٍ فما الفرقُ بين البُخلِ والجودِ

يَضَنُّ بالمالِ محموداً يُثابُ به — طوعاً ويُعطيهِ كَرْهاً غيرَ محمودِ

هانَ المَعادُ فما نفسٌ بهِ شُغِلَتْ — عن ربّةِ العودِ أو عن رنَّةِ العودِ

يا أعْيُنَ الغيدِ تسبينا لواحظُها — قفي انظرى كيف تُمسي أعيُنُ الغيدِ

يبدو الهلالُ ويأتي العيدُ فى أنَقٍ — ماذا الهلالُ وماذا بَهجَةُ العيدِ

يومٌ لغيركَ ترجوهُ وليس لَهُ — كلٌّ ليومٍ غداةَ البينِ مَشْهُودِ

قد صغَّرَ الدَّهرُ عندي كلَّ ذي خطرٍ — حتى أستوى كلُّ مرحومٍ ومحسودِ

إذا فُجعتُ بمفقودٍ صبرتُ لَهُ — إني سأتركُ مفجوعاً بمفقودِ

يا مَنْ له منه أهلٌ لا جزعتَ على — أهلٍ وهل لكَ ركنٌ غيرُ مهدودِ

لسنا نعزِّيكَ إجلالاً وتكرمةً — فأنتَ أدرى ببرهانٍ وتقليدِ

« لكلِّ داءٍ دواءٌ يستطبُّ به » — وليس للحزنِ إلا صبرُ مجهودِ

رحيل

ولئن كان الشاعر مرآة عصره إنه لا بد جازع على الأغصان النضيرة التى يهصرها الموت من دوحة الوطن وهل يعبر الشاعر عن جزعه وأساه إلا بالشعر . قال يرثى خليل مشاقة المتوفى سنة ١٨٧٠

لَعمرُكَ ليس فى الدُّنيا خليلُ — يدومُ ولا يُقيمُ بها نزيلُ

فرادى أو جموعاً كُلَّ يومٍ — لنا عنها إلى الأخرى رحيلُ

لَنا فى أرضنا عمرٌ قصيرٌ — ولكن عندنا أملٌ طويلُ

وآمالُ الفتى أوهامُ فكرٍ — تلوحُ لَهُ ويمتنع الحصولُ

رحيلٌ ممكن فى كلّ يومٍ ... يُعارضه بقــاءٌ مستحيلُ
وكلٌّ حين دعوته يلبى ... إذا ما جاءه ذاكَ الرّسولُ
كما لملوكِنا دولٌ علينا ... عليهم للقضا دولٌ تدولُ
وقد يتقدَّم الملكُ المعلَّى ... وقد يتأخّر العبدُ الذّليلُ
مَلِلتُ نوائبَ الأيّام حتّى ... غضبتُ بها على عيشٍ يطولُ
حياةٌ شابَها كدرٌ كثيرٌ ... وفى أثنائها صفوٌ قليلُ

* * *

لقد نعى الخليلَ صباحَ يومٍ ... بهِ كَثُرَ التلهّفُ والعويلُ
خليلٌ كانَ لى نعم المصافى ... تلاقى الأنسُ فيه والجميلُ
وكان وِدادُه الذهبَ المصفّى ... يزيدُ جلاءهُ الزّمنُ المُحيلُ
أفلتَ اليومَ يانجمَ الدّياجى ... على عجلٍ وما حانَ الأفولُ
دهاكَ البينُ فى أندى شبابٍ ... كغصِ البانِ أدركه الذّبولُ

* * *

تركتَ بنى مُشاقةَ فى نواحٍ ... عليه الصّبحُ يَمضى والأصيلُ
بكوكَ بأدمعٍ نفدتْ وجفّتْ ... فكان من الدماء لَها بديلُ

* * *

سليلَ أبيك إبرهيم حسبى ... وحسبُكَ حيثُ أنت لهُ سليلُ
حيي بك ذكره المشهورُ فينا ... فزال وذكره ما لا يزولُ
وبينكما من النّسب اشتراكٌ ... بتسميةٍ لها الشّرفُ الجزيلُ

فكنت نظيره قبلاً وأمسى ... بفردوسِ البقا لكما حلولُ
فقلتُ مؤرّخًا بأجلّ دارٍ ... أمام العرشِ قد قام الخليلُ

ذهب الحبيب

الشاعر هو ترجمان العصر فما أحراه أن يكون ترجمان نفسه فيستبكى القوافى إذا بكى ويبثها حر جواه وحزنه إذا عصف به الزمن واخترم أعزاءه وأحبابه . قال يرثى ولده حبيباً وهو آخر شعر قاله :

ذَهبَ الحبيبُ فيا حشاشةُ ذوبى ... أسفًا عليهِ ويا دموعُ أجيبى
ربيتُه للبين حتى جاءه ... فى جنحِ ليلٍ خاطفاً كالذّيبِ
يا أيُّها الأمّ الحزينةُ أجملى ... صبرًا فإنَّ الصبرَ خيرُ طبيبِ
لا تخلعى ثوبَ الحدادِ ولازمى ... نَدْباً عليه يليقُ بالمندوبِ
هذا هو الغصنُ الرّطيبُ أصابَهُ ... سهمُ القضاء فماتَ غيرَ رطيبِ
مَنْ للكتابةِ والحسابةِ بعدَه ... ولصحةِ التدبيرِ والتّدريبِ
لا أستحي إنْ قلتُ قلَّ نظيرُه ... بينَ الرّجالِ فلستُ غيرَ مصيبِ
والمرءُ يطلقُ فى الكلامِ لسانَهُ ... إنْ كان لايَخشى منَ التّكذيبِ
إنّى وقفتُ على جوانبِ قبره ... أسْقِي ثراهُ بمدمعى المصبوبِ
ولقد كتبتُ له على صفحاتهِ ... يا لوعتى من ذلك المكتوبِ
لك يا ضريحُ كرامةٌ ومحبّةٌ ... عندى لأنّكَ قد حويتَ حبيبى

ج — الشعر الدينى

استغاثة

كان فى الألوان التى رسمت متباين إنتاج الشاعر هذا اللون من الابتهال للعزة الإلهية وله فيه قصائد دارت وتدور على الألسنة وهذه واحدة منها :

دعوتُ جنح الدُّجى مولاى مبتهلاً ... وهو المجيبُ لِمَنْ نادى ومَنْ سألا
يا أرحمَ الرَّاحمين المستغاثَ بهِ ... عند البلاء الَّذى قد ضيقَ السُّبُلا
إنى على جودِكَ الطَّامى اتَّكلتُ وهَلْ ... يُخيب عبدٌ على ألطافكَ اتَّكلا
أنت القديرُ الَّذى تخشى مهابتَهُ ... وترجفُ الأرضُ منه والسَّما وَجلا
من ذا الَّذى ليس يخشى منك مُرْتَعِدًا ... خوفاً ولو كان يحكى قلبُه الجبلا
ومَن يحلُّ أموراً أنت عاقِدها ... ومَنْ يردُّ قضاءً منك قد نزلا
أنتَ الكريمُ الذى مِن فضلِ نعمتِه ... يُرجى العطاء وأمَّا مَنْ سِواك فلا
أنت الحليمُ الَّذى يُرجى تجاوزهُ ... عن جَهلِ عبدٍ أساء القولَ والعملا
مَنْ رامَ أن يبتنى قصرًا يدومُ لَهُ ... فليبنِ عندك قصرًا فى السَّماء علا
ومن أرادَ الغِنى الباقى لَهُ أبدًا ... يطلبْ غناكَ ولا يبغى بهِ بَدَلا

د — الحكم والأمثال

لا لقاء بلا فراق

حفل الشعر العربى القديم بالحكم والأمثال وبرز فى هذا المضمار جمهرة من فحول الشعراء من مثل المتنبى وغيره ولما كان الشيخ «كأنه قاعد فى قلب المتنبى» طرس على آثاره فى إرسال الحكمة وضرب المثل :

لعمرُك ليسَ فوق الأرضِ باقٍ ... ولا ممَّا قضـــاهُ اللهُ واقٍ
وما للمرء حظٌّ غيرَ قوتٍ ... وثوبٍ فوقَه عقدُ النِّطاقِ
وما للميتِ إلاَّ قيدُ باعٍ ... ولو كانتْ له أرضُ العراقِ
وكَمْ يمضى الفراقُ بلا لقاءٍ ... ولـكنْ لا لقـــاء بلا فِراقِ

أضَلُّ النّاسِ فى الدُّنيا سبيلاً ... محبٌّ باتَ منها فى وِثاقِ
وأخسرُ ما يضيعُ العمرُ فيه ... فضولُ المالِ تُجمَعُ للرِّفاقِ
وأفضلُ ما اشتغلتَ بهِ كتابٌ ... جليلٌ نفعه حـلوُ المذاقِ
وعشرة حاذق فطنٍ لبيبٍ ... يفيدك من معانيه الدِّقاقِ
مضى ذكرُ الملوك بكلِّ عصرٍ ... وذِكرُ السُّوقةِ العلماء باقٍ
وكم علمٍ جنى مالاً وجاهاً ... وكم مالٍ جَنى حربَ السِّباقِ
وما نفعُ الدَّراهم مع جهولٍ ... يُباعُ بدرهمٍ وقتَ النّفاقِ
إذا حُمِل النُّضارُ على نياقٍ ... فأىُّ الفخرِ يحسبُ للنّياقِ
وأقبحُ ما يكونُ غِنى بخيلٍ ... يَغَصُّ وماؤُه ملءُ الزِّقاقِ
إذا مَلَكتْ يداهُ الفِلسَ أمسى ... رقيقاً ليس يطمَعُ فى العِتاقِ
ألا يا جامعَ الأموالِ هلاَّ ... جمعتَ لهـا زماناً لافتراقِ
رأيتُك تطلبُ الأبحارَ جهلاً ... وأنتَ تكادُ تغرقُ فى السّواقى
إذا أحرزتَ مالَ الأرضِ طرًّا ... فمالك فوق عيشك من تَراقِ
أتأكلُ كلَّ يومٍ ألفَ كبشٍ ... وتلبسُ ألفَ طاقٍ فوق طاقِ
فضولُ المـالِ ذاهبةٌ جُزافاً ... كماء صُبَّ فى كأسٍ دِهاقِ
يفيضُ سدى وقد يسطو عليها ... فينقُص مِلأَها عنـد اندفاقِ
مضتْ دولُ العلومِ الزُّهرِ قدمًا ... وقامتْ دولة الصُّفرِ الرِّقاقِ
وأبرزتِ الخلاعـــةُ مِعْصَمَيْها ... وباتَ الجهلُ ممدودَ الرِّواقِ
وأصبحَ يَدَّعى بالسَّبقِ جهْلاً ... زعانفُ يعجزونَ عن اللَّحاقِ
إذا هلكتْ رِجالُ الحىِّ أضحى ... صَبىٌّ القوم يحلف بالطلاقِ
أسرُّ النَّاسِ فى الدُّنيا جهولٌ ... يُفكر فى اصطباح واغتباقِ
وأتعبهم رئيسٌ كُلَّ يومٍ ... يكونُ لكلِّ ملسوعٍ كراقِ ...

من عضةِ الكلبِ

دَعْ يومَ أمس وخذ فى شأنِ يومِ غدِ ... واعدُدْ لنفسك فيه أفضل العُدَدِ
واقنعْ بما قسمَ اللهُ العزيز ولا ... تبسطْ يديك لنيل الرّزقِ من أحدِ
والبسْ لكلّ زمانٍ بردة حضرتْ ... حتّى تُحاكَ لك الأُخرى مِنَ البُرَدِ
ودُرْ مع الدهرِ وانظُرْ فى عواقبهِ ... حذارِ أنْ تُبتلى عيناك بالرَّمَدِ
متى ترى الكلبَ فى أيّام دولتهِ ... فاجعلْ لرجليكَ أطواقاً من الزّردِ
وأعلم بأنَّ عليك العارَ تلبسُه ... من عضَّة الكلبِ لا من عضَّةِ الأسدِ
لا تأملِ الخيرَ من ذى نعمةٍ حدثتْ ... فهو الحريصُ على أثوابهِ الجدُدِ
واحرصْ على الدُّرّ أن تعطى قلائده ... مَنْ لا يميّز بين الدرّ والبَرَدِ ...

ه — التواريخ الشعرية

جلوس السلطان

أما التواريخ الشعرية فله فيها آثار وافرة عجيبة حسبك منها هذا المثل الفريد وهما بيتان قالهما مؤرخاً جلوس السلطان عبد العزيز على العرش :

عبد العزيز رَوَى جاهاً مؤرّخُهُ ... يُهدى حساب جميل البِشْر للبَشَرِ
فرعاً لعثمان ملك الآل عزَّ به ... لا زال بالخير يهدى كامل الوطنِ

وهما بيتان يتضمنان ثمانية وعشرين تاريخاً وذلك أن كل مصراع منهما برمته تاريخ . والحروف المعجمة من كل مصراعين من مصاريعهما الأربعة تاريخ . ومثلها الحروف المهملة فيجتمع من ذلك ستة عشر تاريخاً وكذلك المعجمة مع المهملة والمهملة مع المعجمة فيجتمع اثنا عشر ويكون المجموع ثمانية وعشرين .

٣ — ناصيف اليازجى العالم

ونقصد بالعالم كما أشرنا فى سياق البحث إلى العالم اللغوى المتمكن من العلوم اللسانية فى لغة العرب . ولا يخفى ما فى نقل آثار العلم فى هذه الموضوعات من جفاف غير أننا نجتزئ بشىء قليل تكملة للإطار الذى رسمناه للمترجم له .

وإننا لنكتفى بإيراد جزء من فصل من فصول كتابه « نار القرى » يتكلم فيه عن المبتدأ وعن مسوغات الابتداء بالنكرة قال :

والمبتدا كيما يفيد عُرّفا ... فإن أفاد نَكْرَةً فقد كفى
وذاك فى ما اختصّ كالمضافِ ... أو عَمَّ كالواقع بعد النّافى
وهْوَ مقدَّمٌ بحسبِ الطبعِ ... فاعتمدوا تقديمَهُ فى الوَضْعِ

أى أن حكم المبتدأ أن يكون معرفة لكى يفيد إذا أخبر عنه لأن الإخبار عن المجهول لا يفيد . فإن أفادت النكرة بوجه ما جاز الابتداء بها . وذلك يكون عند اختصاصها لأنه يقرّبها من المعرفة لتقليله الاشتراك . أو عند عمومها لأنه يستغرق كل أفراد الجنس . فتشبه المعرّف بأل الجنسية . أما الأول فيكون غالباً بالإضافة لفظاً نحو : خمس صلواتٍ كتبهنّ الله . أومعنًى نحو : كلٌّ يعمل على شاكلته . أى كل أحد . أو بالوصف لفظاً نحو: ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشرك . أو تقديرًا كقولهم : شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ أى شرٌّ عظيم . أو معنًى نحو : رجيلٌ عندنا أى رجلٌ صغير . وحكمه أن يكون مخصّصًا موصوفه كما رأيت و إلا امتنعت المسئلة فلا يقال : رجل من الناس زارنا لعدم الفائدة . وأما الثانى فيكون تارة بنفس النكرة كقولهم : تمرةٌ خيرٌ من جرادة . وتارةً بوقوعها فى سياق النفى نحو : ما أحد في الدار. أو الاستفهام نحو : هل أمير فى البلد . والمبتدأ مقدّم على الخبر طبعاً لأن المحكوم عليه سابق الحكم الذى يُبنى عليه . ولذلك يقدّم عليه وضعاً إلا فى بعض الصور لعارضٍ كما سيجىء . واعلم أنهم ذكروا للابتداء بالنكرة مسوّغات كثيرة منها ما ذكرناه

آ نفاً . ومنها أن تكون النكرة عاملة نحو : أمرٌ بمعروفٍ صدقةٌ . أو مخبراً عنها بظرف أو شبهه مقدّماً عليها نحو : فوق كل ذى علم عليمٌ ولكل أجلٍ كتاب . أو خلفاً من موصوف كقولهم : ضعيفٌ عاذ بقرملةٍ . أى رجل ضعيف . أو واقعة بعد إذا الفجائيّة نحو خرجت فإذا أسدٌ بالباب . أو بعد كم الخبرية كقول الشاعر:

كم عمّةٌ لك يا جرير وخالةٌ ... فدعاء قد حلبتْ علىّ عِشارى

أو بعد لولا كقول الآخر :

لولا اصطبارٌ لأودى كلُّ ذى مقةٍ ... لمّا استقلّت مطاياهنّ للظَّعَنِ

أو فى صدر جملة حالية مرتبطة بالواو كقول الآخر :

سرينا ونجمٌ قد أضاء فمذ بدا ... محيّاكَ أخفى ضوءه كلَّ شارقِ

أو بدونها كقول الآخر :

الذئب يطرقها فى الدهر واحدةً ... وكلَّ يوم ترانى مديةٌ بيـدى

أو يكون ثبوت ذلك الخبر لها من خوارق العـادة نحو : شجرةٌ سجدت . أو يعطف عليها معرفة نحو : رجل وزيد فى الدار . أو نكرة موصوفة نحو : رجل وامرأة طويلة عندنا . أو يراد بها التنويع كقول الشاعر :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُساء ويومٌ نُسَر

أو الدعاء نحو : سلامٌ على إبرهيم وويلٌ لكل هُمَزَة . إلى غير ذلك مما لا فائدة فى استيفائه . وأكثر هـذه المسوغات يرجع إلى الخصوص والعموم . ومدار الأمر فى الحقيقة على حصول الفائدة وهى العمدة فى ذلك فتدبّر .

بعض المراجع

١ ـ المؤلفات

ناصيف اليازجي : مؤلفاته ودواوينه .
عيسى إسكندر المعلوف : الغرر التاريخية فى الأسر اليازجية .
فيليب دى طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج ١
لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر .
جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ و ٤
أسد رستم : الأصول العربية .
أنيس المقدسى : الأساليب النثرية .
أسعد طلس : مصر والشام فى الغابر والحاضر .
قسطنطين الباشا : مذكرات تاريخية .
يوسف الأسير : إرشاد الورى فى تخطئة جوف الفرا .
نقولا أبو هنا : رسالة فى الشيخ ناصيف اليازجي .
ابن عقيل : شرح ابن عقيل على ابن مالك .

٢ ـ المجلات والنشرات

مجلة المشرق : السنة ٣ و ١٢ ـ مجلة الآثار : السنة ٢ ـ مجلة الجنان : السنة ٢ ـ مجلة النجاح : السنة ٢ ـ مجلة البيان : ج ١ ـ مجلة النفائس : العدد ١٥٥ ـ مجلة الطبيب : العدد ١٤

يوبيل المطبعة الأمريكية ـ مذكرات الدكتور كرنيليوس فانديك فى مجلة الهلال : السنة ١٤ ـ سجل الجامعة الأمريكية ببيروت ١٨٦٥ / ١٨٦٦ ـ مجمع المسرات ـ أعمال الجمعية السورية : الكراس السادس .

فهرست

الفصل الأول

عصر ناصيف اليازجى

الفصل الثانى

ناصيف اليازجى فى عصره

الفصل الثالث

جوانب ناصيف اليازجى

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ناصيف اليازجى

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر فبراير (شباط) ١٩٥٤